5

وكالة أنباء العدو من 1939 وحتى 1945

الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية
الاستطلاع اللاسلكي الألماني يشارك في الاستماع
من ممارسات تاريخ الحرب
مكافحة التنصت ـ إجهاد شديد
ألاعيب وخدع لاسلكية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية

1

لا مراء في أن الحرب العالمية الثانية شهدت سلسلة من حالات التجسس، أثارت اهتماماً عالميا واسعا، منها على سبيل المثال حالة زورجه في اليابان، والروته كابيله في ألمانيا وغرب أوروبا، ومركز الجاسوسية السوفياتية ساندور رادوس في سويسرا، وحالة شيشرون في تركيا، وهذه جميعها حالات حظيت بعمومية غير عادية. كما كان هناك، فضلا عنها، قضايا تجسسية لا حصر لها أكبر أو أصغر منها، مارست وسائل الإعلام الإثارة من خلالها، ومنحت لقب «الجاسوس الفذ» بسخاء، حتى تحول إلى لقب شائع في الحديث عن الجواسيس والعملاء جميعهم، الذين قيل إنهم عرفوا أعمق أسرار الدول والجيوش على الجانب الآخر، وأسهموا في الانتصار الحاسم أو الهزيمة النهائية لهذا الطرف أو ذاك. وزعم مخبران صحافيان فرنسيان أنه تم كسب الحرب في سويسرا[1] ـ بفضل المعلومات السرية، التي بعث بها من هناك إلى موسكو لفيف من العملاء.

لكن الحقيقة كانت خلاف ذلك: إن قسما كبيراً من الخدمات الاستخبارية،

(1) هذا ما تقوله سلسلة المقالات في مجلة أسبوع العالم السويسرية، التي كتبها سنة 1965 بيير آكوكو وبيير كي. وقد نشرت فيما بعد ككتاب حمل عنوان موسكو عرفت كل شيء، زيوريخ 1966.

التي كانت القوى المحاربة تعلق أهمية حقيقية عليها، كان يتم، بوجه عام، من دون جواسيس وعملاء. نؤكد مرة أخرى على هذه الفكرة، فقد عرف المجال الاستخباري معارف عظيمة وغنية بالنتائج، تم الحصول عليها بوسائل أخرى، من دون أي تدخل من الجاسوسية، يجب أن تعزى إلى اكتساب معرفة كلية، لا تستند على هذا الخبر السري أو ذاك، بل على المعلومات الجارية. هذه الخدمات الاستخبارية بقيت طوال الوقت لصيقة بالعدو. ترى، كم كان طول، أو بالأحرى، قصر الزمن، الذي نشط فيه «الجواسيس الأفذاذ» المذكورون أعلاه، بالمقارنة مع أزمنة نشاط هذه الخدمات؟. كُشف زورجه في نهاية سنة 1941، بمجرد أن بدأت الحرب الألمانية / السوفياتية. وكُشفت الروته كابيله في ألمانيا في أيلول/ سبتمبر من سنة 1942. أما بالنسبة إلى مقر ساندرو رادوس في سويسرا، فهناك إثباتات تؤكد أنه لم يرسل معلومات قيمة إلى موسكو إلا سنة واحدة فقط، امتدت من خريف 1942 إلى خريف 1943، اضطر رادو بعدها إلى التواري عن الأنظار. وتبددت حالة شيشرون، لأن هتلر لم يبد اهتماماً كافيا بالوثائق التي جلبها خادم الغرفة. إن النتائج الفعلية، التي ترتبت على أعمال الجاسوسية، ليست هي التي جعلت هذه الحالات مهمة بالنسبة إلى الرأي العام، بل جعلها كذلك جانب المغامرة، والغموض والخطر، أو الفسحة المفعمة بالأسرار التي جرت فيها. وما أثار اهتمام القارئ أو المتفرج، وحرض حس الإثارة لديهما، كان ظروف جمع المعلومات وليس مضمونها الحقيقي. بنظرة شاملة، وتقويم ينصب على قيمة ما جمعه من معلومات، نجد أن الجاسوس أو المخبر من النمط القديم كان شخصا هامشيا خلال الحرب العالمية الثانية، التي لم تعرف حالة تشبه حالة عقيد الأركان العامة ريدل سنة 1912. وبالنظر إلى أن الحجم الإجمالي لما أريد معرفته أو لما عرف حقا عن العدو، كان قد تطور كثيراً، فإن أعين وآذان الأفراد لم تعد كافية، مهما كان عددهم كبيرا، لإلقاء النظرات الضرورية على مسار، قوة، وعمليات، وتسليح، ونوايا الطرف الآخر.

لهذا، لم يحمل أساتذة الاستخبارات الحقيقيون في الحرب العالمية الثانية اسم زورجه، روسلر أو شيشرون، بل بقوا مجهولين تقريبا، إلى أن كتبوا مذكراتهم، أو برزوا بطريقة أخرى بعد الحرب. لقد أبقى هؤلاء أشخاصهم خارج أي عمليات تجسس، واكتفوا بإعطاء مهام، أو بتلخيص معلومات، أو بتحليلها وتقويمها. بذلك أمكنهم التنبؤ معظم الأحيان بنوايا العدو، استنادا إلى مستندات ومعطيات جمعتها مراكز خارجية وقاموا هم بمعالجتها. لقد كانوا الرجال الذين قادوا مراكز الاستخبارات، وأعطوا «مهام البحث»، وهم في أوروبا قبل كل شيء «المدير» وكينيث سترونج، وراينهارد جيهلن، وأولريش ليس، وآلان دالاس، وقد كان لهم جميعهم نفوذ على مسار الحرب، وإن حالف الحظ هذا أكثر أو أقل من ذاك. وهم جميعهم يستحقون مكانا بارزا في تاريخ الحرب والعصر[51]. إذا كنا لا نذكر الأميرال كاناريس في هذه السلسلة من الرجال، فبسبب الأوضاع المأسوية، التي ارتبطت ليس فقط بشخصه بل كذلك بتسريحه وأخيراً بإعدامه: ذلك أن «شعبة مكافحة التجسس الألمانية» لم تكن منظمة أو مجهزة بشريا بما من شأنه أن يمكنها من تحقيق إنجازات خارقة. غير أن العطب الأسوأ كمن مع ذلك في واقعة أن «مكتب المراسلات السرية»، الذي قاده كاناريس، عانى بصورة خاصة من توزيع المهام، وقيام مؤسسات استخبارية كثيرة إلى جانب بعضها البعض، حيث كان هناك مكافحة و«جيوش أجنبية»، اختصت إحداهما بالقيادة العليا للقوات المسلحة، والثانية بالأركان العامة للجيش[52]. وكان هناك استطلاع بالإشارة على الجبهات ومكافحة لاسلكي في المناطق المحتلة بدأت عملها منذ سنة 1942، لكنه لم يكن هناك مركز سنة أو أعلى يجمع المعارف[1] التي تحصل مجتمعة عليها، وتلك التي تحصل عليها فروع

(1) يمتلك المؤلف نسخة من المحاضرة، التي كتبها هالدر أثناء عمله في قسم التاريخ بكارلسروه.

القوات المسلحة الثلاثة أيضاً ـ وكان لدى البحرية وسلاح الجو استخبارات خاصة بهما ـ ويضعها أمام قائد الحرب الأعلى. من جانبه، لم يهتم هتلر بالاستخبارات، على عكس ستالين وأيزنهاور[53]. لذلك، تحول كاناريس وأوستر وغيرهما من ضباط المكافحة إلى انهزاميين بالضرورة، وشعر عدد غير قليل من المنتسبين إلى المكافحة بالإحباط، وكيف لا يصابون به إن كانوا يخدمون في مؤسسة تقادمت وتناقص مردودها باضطراد.

تقادمت خدمة المراسلات السرية، لأنها اعتمدت أساسا على أشخاص ومخبرين شخصيين، وجمعت معلومات غائمة معظم الأحيان، وتعاملت دوماً وفي كل مكان مع قضايا إنسانية / فائقة الإنسانية. غير أن التقدم التقني طور أداة جديدة لهذا المجال أيضاً، تستطيع تخطي الزمان والمكان بسرعة الفكر، وتضييق ما هو ذاتي وإلغائه، هي اللاسلكي بوظيفته المزدوجة: كأداة اتصال و«مصدر موثوق» للمعلومات، يمكن أن، يشارك في الاستماع إلى رسائل الطرف الآخر البرقية وفي قراءتها[54]. هنا، أود أن استشهد مرة أخرى بالعماد هالدر، رئيس أركان الجيش الألماني بين 1938 و1942، الذي قال: «أظهرت تجربة الحرب العالمية الثانية في المجال الذي نتحدث عنه أن اتصالات العدو البرقية هي أفضل وأغني مصدر معلومات. وأن أفضل نظام برقي وأكثر تدابير الشيفرة دهاء لن تستطيع تغيير هذه الحقيقة، وإن نجحت في تلطيفها، في أحسن الأحوال، مع أن قدرتها على تلطيفها تتناقص بتعاظم أمد الحرب. في عصر المحرك، تحتاج القيادة العسكرية، للسيطرة على التحركات المتزايدة السرعة باضطراد، إلى وسيلة تفاهم سريعة الأداء. وعلى التقنية أن تجد، إذن، وسائل تحمي التواصل البرقي الخاص، بنمطه المعروف في أيامنا، ضد الجانب المعادي، أو أن تبتكر طرقا جديدة للتفاهم بوسائل لاسلكية حصينة تماماً ضد التنصت».

حقق تقدم تقنية اللاسلكي خطوات حاسمة في ممارسة الحرب، سواء

في مجال القيادة التكتيكية أو العملياتية، أو في مجال الاستخبارات السرية. فقد اكتشف طرقا جديدة لإيصال الأخبار بصورة مباشرة إلى مسافات متزايدة البعد بواسطة الموجات القصيرة، أتاحت التخلي عن طرق معقدة تتطلب زمناً طويلا لنقل المعلومات والأوامر والأخبار، وجعلت بالمستطاع إيصالها طازجة إلى المركز. بسبب سرعة تغير الأوضاع في الحرب، تفقد الأخبار قيمتها، إلا ما كان منها جديدا أو مضى عليه ساعات قليلة، ويمكن متلقيه من اتخاذ تدابير يواجه بها العدو. بدوره، كان المبرق الناطق وسيلة اتصال محببة على الجبهة الشرقية منذ سنة 1942، ومصدر معلومات موثوقة بالنسبة إلى الطرف الآخر، وإن ضمن ظروف معينة على أي حال. تناقصت قدرة المكافحة على مجاراة هذا التغلغل في أسرار الخصم، وربما كان المدير في موسكو قد تخلى نهاية سنة 1943 لهذا السبب عن مركز التجسس ساندور رادوس في سويسرا.

منذ سنة 1942، غدت اتصالات العدو اللاسلكية في الشرق خاصة مصدر رئيسا لمعلومات مختلف مراتب القيادة الألمانية، باستثناء قائدها الأعلى. هذه الحقيقة ليست معروفة بعد بالقدر الذي تستحقه. والحق، إن نتائج الاستطلاع اللاسلكي، الذي سمي منذ سنة 1944 استطلاع المعلومات، فاقت أكثر فأكثر نتائج المكافحة، التي لو قومناها بدلالة نتائجها، لوجدنا ما يبرر إلغاء استقلاليتها سنة 1944 ووضعها تحت إشراف الاستخبارات في مكتب أمن الرايش الرئيسي. أما فن فك الرموز وكتابة الشيفرات الصعبة، قد أوصلته شعبة الترميز في القيادة العليا للقوات المسلحة إلى درجة رفيعة من التطور، بينما استطاع استطلاع تشكيلات الجبهة، من الفرقة فما دون، قراءة رسائل برقية كثيرة، بما امتلكه من خبراء متخصصين. بذلك، صار الاستطلاع سلاح مكتب المعلومات السرية الرئيس، خاصة على الجبهة الشرقية. وكان غالباً العون الوحيد، والفاعل، في أوضاع بدا وكأنه لا أمل

يرتجي منها. وستثبت النتائج، التي سنتحدث عنها في الفصول التالية، صحة ما نقول.

احتاج الأمر، على كل حال، إلى أعوام، قبل أن يدرك المرء في ألمانيا إمكانات هذا السلاح الاستطلاعي في الأثير، ويقوم باستخدامه. بل إننا ما زلنا نجده إلى يومنا خارج التصورات العسكرية الموروثة، التي تطرح أسئلة مثل: ألا يتنصت هؤلاء الجنود بدل أن يقاتلوا، ويكتبون بدل أن يطلقوا النار، ويعزلون أنفسهم بدل أن يعززوا الجبهة؟. وقد شكا آخر رئيس للاتصالات في القوات المسلحة ولشعبة المعلومات في الجيش جنرال سلاح الإشارة البرت براون من أن هذا المجال لا زال يعامل بإهمال عند كتابة التاريخ الحربي. وأكد في دراسة تحمل العنوان ذاته أن: «كتاب أرشيف الرايش الموسوم الحرب العالمية من 1914 إلى ...1918 اعترف أن الجيش الألماني لم يتخذ، بعكس الجيشين النمساوي والفرنسي، أي استعدادات قبل الحرب لمراقبة اتصالات العدو اللاسلكية، بقصد استطلاعها وفك رموزها وتقويمها تكتيكيا. وحين وصل إلى قائد الجيش الثاني، الجنرال فون هندنبورج، نص الأوامر الكاملة الصادرة عن قائدي الجيشين الروسيين المعاديين، الجنرال رينكامب قائد جيش نيمن، والجنرال سامسونوف قائد جيش ناريف، بينما كان هو منهمكا في الإعداد لمعركة تاننبورغ، التي وقعت يوم 25 آب/ أغسطس سنة 1914، سجل كتاب أرشيف الرايش باستخفاف: «كان هذا حسن ضربة حظ خاصة... . ترى، ألم يكن من الأفضل القول إنه لأول مرة في تاريخ الحرب قامت وسيلة استطلاع عصرية هي الاستطلاع اللاسلكي، بتحرير القائد من جزء من «قلقه» (كلاوزيفيتز: عن الحرب)؟. يخلوالكتاب من مقارنة بين تزود الروس السخي باللاسلكي وتزود الألمان غير الكافي به، ولا نجد فيه ذكرا للعب فرسان الجيش الألماني غير الحذر

باللاسلكي أمام باريس، واستخدام هذا الجهاز بيقظة من قبل الفرنسيين». ثمة سبب كاشف، جعل قيادة فرسان الألمان العليا (فون دير مارفيتز) على الجناح الأيمن لجيش الألمان الغربي، تكثر من الإبراق، هو أن ضابط الأركان العامة المختص نسي في حمأة الحرب أخذ مستندات الشيفرة الألمانية معه. فلم يكن هناك بد من استخدام اللاسلكي بكثرة، حصل الفرنسيون معها على معلومات عظيمة الأهمية لعملياتهم، عرفوا كيف يفيدون منها. وقد روى الجنرال اللاحق جيفيير، قائد مركز التشفير في أركان الجيش الفرنسي العامة، ذلك بالتفصيل[1]. هذا الإخفاق على الجانب الألماني كان كاشفاً بالنسبة للتجاهل الذي تم إبداؤه آنذاك خيال اللاسلكي، بما في ذلك ضمن أوساط الأركان العامة للجيش.

2

في مقابل إهمال اللاسلكي في الجيش الألماني القديم قبل الحرب العالمية الأولى كان هناك حس أكيد في ملكية الدون بإمكاناته، حتى بالنسبة إلى العمل الاستخباري. وقد راقب مركز المكتب العسكري السري، مكتب القيادة القيصري الملكي، الاتصالات البرقية للإيطاليين خلال الحرب الإيطالية / التركية سنة 1911، وفك رموز رسائلها السرية، ولعب دورا مقررا في هذا التقدم رئيس المكتب اللاحق، اللواء ماكس رونجه، الذي ندين له بكتاب مهم صدر سنة 1930 بعنوان الحرب والجاسوسية الصناعية[2]. كما وجد المكتب في شخص العقيد فيجل محلل رموز أسطوري الصيت، أظهر

(1) مقطع من كتاب الجنرال مارسيل جيفيير: في خدمة الشيفرة، 18 عاماً من الذكريات 1907-1925، أميان 1930، الفصل الخامس عشر: «نصوص الرسائل البرقية الألمانية خلال شهر أيلول/ سبتمبر سنة 1914».

(2) ماكس رونجه: الحرب والجاسوسية الصناعية، فيينا 1930، ص 311.

براعة فائقة في فك رموز الرسائل السرية الروسية والصربية والرومانية، حاكت براعته في فك رموز الرسائل الإيطالية. وقد قال الإيطاليون عن الاستطلاع النمسوي خلال الحرب العالمية الأولى: «يكفي أن نشير إلى المستوى الرفيع لقسم التنصت بالراديو، الذي استكمله قسم رائع لفك الرموز، نجح حتى أثناء التراجع (بعد معركة كارفرايت في تشرين الأول/أكتوبر سنة 1917) في اختراق محطات الراديو التابعة لنا وفك رموز برقياتنا، ومعرفة الخط الذي سنتراجع إليه. وقد علمنا من الوثائق التي غنمناها بعد الهدنة أن العدو فك جميع شيفراتنا تقريبا، بما فيها الأكثر سرية وتعقيدا». كانت ظروف الروس في الحرب العالمية الأولى مماثلة لتلك التي سادت لدى النمسويين، فقد أدركت هيئة أركانهم في مرحلة مبكرة أهمية النظام البرقي بالنسبة للقيادة، بعد أن لفت الفرنسيون أنظارهم إلى ذلك. وكتب الجنرال الروسي السابق نوسكوف دراسة حول هذا الموضوع، نشرتها مجلة سلاح الإشارة سنة 1938 (الدفتر السادس). تقول الدراسة: «تطلعت الأركان العامة الروسية في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى إلى امتلاك معرفة صحيحة بأهمية النظام البرقي في الحروب المستقبلية، وعملت على توزيع محطات لاسلكي خفيفة على أركان فرق المشاة، ولأن هذا كان صعب التحقيق بسبب النقص في الكادر المدرب، اقتصر نشر محطات اللاسلكي على فرق الفرسان. ما إن بدأت الحرب، حتى كانت جميع وحدات الجيش المرابطة في مناطق الحدود قد تلقت محطات لاسلكي خاصة بها. وإذا كان الروس متقدمين في هذا المجال بالمقارنة مع الألمان، فإنه من الضروري مع ذلك التأكيد أن كادرهم لم يكن في حالات كثيرة أهلا لمهمته، بما أن شريحة المتعلمين، الذين كان يمكن تشغيلهم في النظام الجديد، كانت قليلة إلى أبعد حد، مما جعل التدريب يتطلب وقتاً طويلاً. كما أن الحاجة الكبيرة إلى وسيلة الاتصال

الجديدة في الأركان حالت دون إعطائها الاهتمام الكافي. صحيح أن الروس كانوا أفضل تجهيزا بالتقنية من الألمان، لكنهم لم يبدأوا تدريب الكادر الضروري إلا قبل فترة قصيرة من نشوب الحرب، فعانوا طوال الحرب من هذا النقص، وكانت طريقة الكتابة السرية تسبب لهم دوماً أعظم قدر من الصعوبات، ولم يكن بمستطاعهم تبديل مفتاحها بصورة مستمرة، مما أفضى إلى فك رموز رسائلنا البرقية بسهولة نسبية». ربما كان ما سبق يفسر استخدام الروس نصا صريحا في إذاعة أوامر الهجوم يوم 25 آب/أغسطس 1914. يقول الجنرال نوسكوف: «كنا نرى في الجيش الثامن الألماني (فون هندنبورج) عدواً يحاول الفرار بأقصى سرعة إلى ما وراء الفايكسل، بعد فشله في القتال، فاعتقدنا أنه لا خطر في أن يعرف «الهارب» أكثر قليلا عن عدوه مما «يحق له معرفته» في العادة.

3

كان لهذه الأحداث في مجال اللاسلكي نتائج إيجابية بالنسبة إلى التطور والتجهيز اللاحق لقوات سلاح الإشارة الألمانية[1]، فقد تعلم فون دير موريتس، ضابط الإشارة المسؤول في القيادة العليا للفرسان، منها، واستخلص النتائج العملية التي ترتبت عليها. كما قاد ايريش فيلجيبل بذاته مكتب الترميز في وزارة حرب الرايش بين سنتي 1929 و1931، قبل أن يصير رئيس أركان تفتيش سلاح الإشارة، ويغدو مفتشه العام في الأول من تشرين الأول/أكتوبر سنة 1934، حيث قيض له أن يبنيه ويستكمله فعليا، قبل نشوب الحرب. لم يعِ فيلجيبل أهمية اللاسلكي كوسيلة اتصال فقط، بل

(1) أنظر ألبرت براون: حول النص الصريح والوثائق السرية، في فيهرفيسنشافتليشه روندشاو، السنة 1968، الدفتر السابع، ص 399-415.

أدرك قيمته كمصدر أكيد للمعلومات، لذا، أشرف على وضع لائحة مكتب الجيش السرية رقم 17، التي شرحت تدابير الاستطلاع عبر وسائل نقل الأخبار وحددتها، وكرس الدفتر الأول منها للاستطلاع التكتيكي القريب، بينما اختص الثاني بالاستطلاع الميداني البعيد، لتتحدد بذلك متطلبات شكل ثالث من جمع المعلومات: حيث الأول هو التقويم المنهجي للمعلومات «المفتوحة»، المنشورة في صحف وأدب وإذاعة الجانب الآخر، والثاني المعلومات التي يجمعها المتعاطفون، أما الثالث فالاستطلاع بواسطة وسائل نقل الأخبار، الذي احتل أهمية متزايدة خلال الحرب، وفاق في النهاية أي شكل آخر لجمع المعلومات. مهدت اللائحة الطريق إلى ذلك، وأقرت قيادة الجيش العليا، مكتب الجيش العام، التفتيش 7 (سلاح الإشارة)، مسودتها بعد فترة قصيرة من ضم النمسا مطلع سنة 1938، وفوضت فيلجيبل بتوقيعها.

لحق الاستطلاع البرقي الألماني بالآخرين، فدخل سنة 1939 مسرح التاريخ الحربي والمعاصر، ثم أظهر قدراته في مجرى الحرب العالمية الثانية، وبين أنه لم يعد بمستطاع مختلف مراتب القيادة الاستغناء عنه، بدءا بقيادات الفرق. صحيح أن الاستطلاع البرقي لم يلعب دورا حاسما في حملتي بولونيا والنرويج الصاعقتين، لكن عمل فيلجيبل البعيد النظر ما لبث أن أكد جدارته بصورة ممتازة في حملة الغرب.

كان فيلجيبل رجلا استثنائيا[1]، يصعب قياسه كجندي بالمعايير التقليدية، التي كان يقاس بها زملاؤه في السلاح. وقد ولد في سيليزيا لأحد ملاك الأرض، لكنه نشأ في مقاطعة بوزنان، وذهب ككثيرين ممن لا ينتمون إلى شريحة النبلاء إلى وحدة تقنية هي فوج التلغراف الثاني في فرانكفورت

(1) انظر سيرة حياته: إبريش فيلجيبل، استاذ الاتصالات المعلوماتية الميدانية. إسهام في تاريخ سلاح الإشارة. إصدار كارل هاينس فيلدهاجن، هانوفر 1970.

على نهر الأودر، ليصبح ضابطا محترفا، حيث تبين أنه موهوب تقنيا وشامل الاهتمامات. بعد تجاربه السلبية في قيادة الفرسان العليا سنة 1914، اكتسب الضابط الشاب معارف إيجابية حول إمكانات الاستطلاع البرقي في الشرق لدى النمسويين، حيث كان سنة 1916 مقدما وقائداً للاتصالات البرقية في جيش ماكنزن ورئيس أركانه الجنرال فون سيكت، الذي أثار فيلجيبل اهتمامه، فأرسله إلى دورة تعليمية مخصصة لضباط الأركان، نجح فيها بامتياز. بصفته مقدما في الأركان العامة، صار فيلجيبل معالج معلومات عن العدو (ضابط شعبة أركان ثالثة) في شعبة فون سيكت من قيادة الجيش العليا: بهذا التعيين، ضم سلاح الإشارة إلى مهامه مهمة جديدة. ثمة نقاط تشابه بين مسار صيرورة فيلجيبل و«زميله» اللاحق وخصمه الرئيس السوفياتي بيرسيبكين، مع فارق مهم هو أن الروسي لم يعرف نهاية فيلجيبل المفجعة.

في الأول من كانون الثاني/ يناير سنة 1929 عين فيلجيبل رئيس مركز الترميز في مكتب وزير حرب الرايش ببرلين، فبدأ بتنظيم رقابة منهجية على الخدمات البرقية الأجنبية، واضعا بذلك حجر الأساس لاستطلاع المعلومات اللاحق. كان مركز الترميز يقدم أيضاً أفضل الفرص لبناء خدمة رقابية واستطلاع برقي في السلم، ويجعل بالإمكان تحويلها إلى أداة فاعلة في يد القيادة العليا. لم يفهم رؤساؤه جميعهم مبادرته هذه آنذاك. كما لم يثمنها تاريخ الحرب إلا في كتابين تخصصين هما: البرت براون: جندي في سلاح المعلومات والإشارة، وإيريش فيلجيبل: اساتذة اتصالات المعلومات الميدانية، إسهام في تاريخ سلاح الإشارة 7. لئن كان تأثير هذين الكتابين يعد قليلا على الرأي العام الواسع، وتاليا على مؤرخي الحرب، فإن هذا الفصل من مكتب المعلومات السري ربما يكون حظي ببعض الشيوع، وتمت ملامسته من الخارج، إلا أنه لم يحظ بعد بالاهتمام الذي يستحقه. ثمة طبعا أسباب مفهومة لذلك: «فالرسالة البرقية، والرسالة عن بعد، والبرقية

بالكابل، والشيفرة، وآلة التشفير، وفك الشيفرة، والرصد البرقي، والسبر البرقي، وتحديد الأمكنة البرقي، والصورة البرقية هي مفاهيم غائمة بالنسبة إلى المؤرخين، تبقى العمليات المرتبطة بها عجائب مفعمة بالأسرار في نظرهم، يجهلون كيف يقوِّمون إمكاناتها وحدودها وأخطارها. فلا غرابة أن يرتابوا في المواد التي تنقلها وتجمعها هذه التقنيات، بما تحمله غالباً من أخطاء جسيمة في الحكم على الوثائق التاريخية وفي تقويمها»[1].

4

لا نفكر في هذا العرض بتاريخ الحرب المقبلة فقط، بل كذلك بالتاريخ المعاصر عموما. ثمة اهتمام واسع بالاستخبارات ونشاطها في الحرب العالمية الثانية. وقد ظهر عدد كبير من الكتب عنها. بالمقابل، لم يستطع ماكس جونتسنهويزر، مفهرس كتب الاستخبارات السرية، أن يذكر في الملخص[2] الذي أصدره سنة 1968، غير اثني عشر عنوانا فقط حول اللاسلكي، معظمها مقالات نشرت في المجلات، وهو ضرب من النشر الشحيح يتعارض كل التعارض مع أهمية الاستطلاع البرقي وإنجازاته قبل وخلال الحرب، الذي كان سنة 1943 أعظم بكثير مما أنجزه سائر أساتذة التجسس مجتمعين من سنة 1937 إلى 1945.

ليس رؤساء الاستخبارات بريئين أيضاً من هذا التقصير: تشير المستندات من 1/ 7/ 1944 إلى 4/ 12/ 1944 كم حرص هؤلاء على حجب «مصادر معلوماتهم الأكيدة»، وأحجموا عن الحديث حول سلاحهم السري،

(1) طبعة خاصة من أنباء تاريخية عسكرية، الرقم 2/ 68، ص 158. النص للدكتور يورجن روهر.

(2) ماكس جونتسنهويزر: تاريخ مكتب المعلومات السرية، تقرير أدبي وفهرس، فرانكفورت 1968.

الذي تعاظمت أهميته بالنسبة لاستخباراتهم. وكم خشوا كذلك إفشاء الأسرار، التي قد توقظ «الكلاب النائمة». وإننا لنفهم هذا جيدا، لا سيما وأن المرء يغرف غالباً، أو فقط، في هذا المجال الخاص لجمع المعلومات من أخطاء، وإهمالات، وروتين الطرف الآخر، وكذلك من الخيانة والضياع أو من التخلي عن مفتاح اللاسلكي. ينسحب هذا كله كخيط أحمر عبر التاريخ غير المرئي لمكاتب المعلومات السرية. والحق، فإن أعظم خيانة كمية ونوعية لأسرار الدولة وللأسرار العسكرية قد ترتكب بسبب إهمال المبرقين أو الأجهزة التي تراقبهم. ويفوق عدد هذا النوع من الخيانات كثيراً عدد الخيانات التي ترتكب بدوافع أيديولوجية، والتي لم تتم دراستها بعد أيضاً. وللإنصاف، فقد رفع الخبراء الحجاب عن نجاحات الاستطلاع البرقي الألماني، وقام ليو هيب بالبداية سنة 1954 مع «الروندشاور العلمي العسكري»، ثم تبعه الجنرال ألبرت براون، الذي كان هيب رئيس أركانه سنة 1944/ 1945، في مذكراته «جندي في سلاح المعلومات والإشارة»، الذي صدر سنة 1965، وبعد خمس سنوات تبعه كارل ألبرت مونجه، أحد القادة الستة المميزين في الاستطلاع المعلوماتي، فكتب إسهامات متنوعة حول مذكرات فيلجيبل، وقال بين أشياء أخرى: «كان الأمر شبيها بالاستطلاع البرقي عن بعد، الذي دعمه المفتش بقوة في السلم، ثم أثبت جدارته في بولونيا، وحسَّنه تحسينا متواصلا، فحقق إنجازات مميزة، خاصة في سنوات الحرب الأخيرة، عندما انتفى تقريبا الاستطلاع الجوي بسبب تفوق الطيارين المعادين، وعمل الاستطلاع بالعملاء لمصلحة العدو غالباً أكثر مما عمل لقيادته الخاصة.

تحتل الفصول المكرسة للجانب الآخر من الاستخبارات السرية أهمية خاصة بالنسبة إلى علم الشعوب، لأنها تبين نقاط ضعفها وقوتها. وعلى سبيل المثال، فإن الألمان لا يملكون نزوعا خاصا إلى العمل السري وموهبة

فيه، بعكس الروس. لكنهم قوم صلابة واجتهاد ودأب، حين يتعلق الأمر بحل مهام صعبة كفك الرموز، وهم لا يستريحون حتى ينجزوها. لذلك، تستحق إنجازاتهم أن تقارن بإنجازات علماء الآثار، الذين يتقدمون بصورة منهجية إلى طبقات الحضارات القديمة، قبل أن يركبوا صورة كاملة من اللقى الجزئية. إن الميل إلى العمل العلمي المنهجي من جهة، ونظام العمل والإبراق السائد من جهة أخرى، أفادا الاستطلاع البرقي خصوصا والاستخبارات عموما. أما المصاعب بدرجاتها المختلفة، فقد اجتذبت الطبائع القوية، مثلما يحدث عند صعود الجبال وفي الملاحة. أما العمل فقد كان عائده مجزيا، حتى إن فك رموز بعض الرسائل كان له أهمية العون الذي يمكن أن تقدمه أفواج وألوية. لذا، غدا من المحال أن تستغني عنها أي قيادة أريبة في سنوات الحرب الأخيرة، كما سنبين لاحقا.

كان قائد الحرب الأعلى الوحيد الذي رفض أن يعرف شيئاً عن معلومات المصادر الأكيدة[55]. لقد أصدر سنة 1940 حكما صحيحاً على الفرنسيين، بالاعتماد على «حدسه»، بينما بالغت أركان الجيش العامة كثيراً في قدراتهم ـ فأصر منذ تلك الواقعة على أن حدسه يصيب دوماً كبد الحقيقة، رغم أن «الأرواح الخيرة» فارقته لدى اتخاذ قرار الحرب في الشرق، ثم تتابعت الأخطاء القيادية الاستراتيجية، التي نبعت من استهانة كارثية بقوة العدو المتنامية. كان الاستطلاع البرقي يقدم دوماً مستندات جديدة موثوقة حول أوجه هذه القوة ـ ولكن من دون جدوى. ومع أنها كانت معلومات مفيدة، من غير الممكن الاستغناء عنها حتى في مستوى قيادة مجموعة جيوش، فإن هتلر وحده رفض الاكتراث بها، فأثار سلوكه امتعاض المسؤولين عن جمعها وتقويمها؟. لقد استاء ليس فقط كاناريس وأوستر، بل كذلك فيلجيبل وتيله، وغيرهما من كبار ضباط سلاح الإشارة، الذين عرفوا أن هتلر يقود الرايش إلى الكارثة، وانقلبوا بمرور الوقت من جنود موالين

إلى أعداء لرجل كان يدمر بنية أوروبا، إلى أن آمنوا في النهاية بضرورة إزاحته. بيد أنه تبين أن الرجال من أمثال بيك وشتاوفنبيرج واولبريش لم يكونوا أساتذة في التآمر، فسقطت مع فيلجيبل ومعاونيه أفضل رؤوس الإشارة ضحايا لنزعة هتلر الثأرية ـ هناك تشابه يثير القلق في التدابير الشمولية، انضم هتلر فيه إلى ستالين، على ان روسيا قامت ببداية جديدة سنة 1938، بينما كان سنة 1944 يعني نهاية ألمانيا، فقد أعدم يوم الرابع من أيلول/سبتمبر من سنة 1944 في بلوتسنزي فيلجيبل ونائبه الجنرال تيله، ورئيس أركانه العقيد هان، وانتحر بإطلاق النار على نفسه قائد مركز الاستطلاع في قيادة القوات المسلحة العامة فون دير أوستن، بعد أن استدعته الشرطة السرية إلى التحقيق.

عين العميد براون خلفاً لفيلجيبل في الوظيفة التي ربما كانت أكثر وظائف القوات المسلحة الألمانية صعوبة[1]. وكان قبل ذلك قائد فرقة المشاة 277 في الغرب، فنجا بتعيينه من الورطة التي كانت ترتسم على هذه الجبهة أيضاً. نجح براون في واحد من تدابيره الوظيفية الأولى في رفع منصب مدير الاستطلاع الاستخباري إلى رتبة لواء، واختار له العقيد بوتسل، الذي كانت تسبقه سمعته كخبير مجد وجندي يتسم سلوكه بالفروسية والإبداع. في هذه الأثناء كانت معلومات الاستخبارات المتخصصة بالعدو، المخصصة للأركان العليا، تأتي بنسبة تصل إلى 80٪ وأكثر من الاستطلاع البرقي وحده.

(1) أنظر البرت براون: جندي في سلاح الإشارة والبرق، فورتسبورج. وخاصة الفصل «رئيس استخبارات الجيش 1944 / 1945» ص 218-256.

obeikandl.com

الفصل الثاني

الاستطلاع البرقي الألماني يشارك في الاستماع

1 ـ الاستطلاع البرقي وجمع المعلومات

لا بد، بادئ ذي بدء، من ملاحظة عامة هي أن جميع الجيوش والقوات المحاربة، التي شاركت في الحرب العالمية الثانية في البحر والبر والجو، كانت تخوض أيضاً الحرب على الأثير، وحققت جميعها نجاحات وعانت إخفاقات في معاركها السرية والصامتة، وانتصرت أو تعرضت لهزائم. لقد اتخذ كل طرف تدابير تمكنه من مراقبة الاتصال البرقي لدى الجانب الآخر، والاستماع إليه وقراءة مضامينه، ومعرفة من أبرق وماذا تم إرساله، وفك رموز الكتابة السرية المستخدمة، سعى بواسطتها إلى الحصول على معلومات سريعة وأخبار موثوقة من مصدرها الأول. بالمقابل، عمل كل جانب بجميع الوسائل لحماية اتصالاته البرقية الخاصة من الاختراقات المعادية. تلك كانت حرباً صامته موضوعها كشف الأسرار وحمايتها، ميدانها الأثير. هذه الحقيقة معروفة بقسماتها الكبرى، وقديم الصمت عن نتائجها إلى اليوم، وإن بصورة جزئية، فلا يتحدث رؤساء أجهزة الاستخبارات الكبيرة في مذكراتهم عنها بغير لغة التورية والتلميح وحدها.

هذا كله له نتائج سلبية أيضاً بالنسبة إلى تقديم تاريخ الحرب. هكذا يحدث، مثلا أن الأدبيات الجدية تساوي أغلب الأحيان بين شعبة «المكافحة» في القوات المسلحة الألمانية وبين الاستخبارات الألمانية عموما. لذا، من

الضروري التذكير مرة أخرى بحقيقة أن لوائح الخدمة الألمانية السرية ميزت خلال الحرب العالمية الثانية بين وكالة أنباء العدو عموما ومكتب المراسلات السري للمكافحة. لنستشهد هنا مرة أخرى بلائحة خدمة الجيش المسماة مكتب معلومات العدو (تاريخ 1/ 3/ 1941)، وخاصة منها الفقرة 16، التي تقول: «مكتب المراسلات السرية هو في السلم أحد أهم مصادر المعلومات. ويواجه عمله في الحرب صعوبات ترجع إلى تدابير العدو في المكافحة، وسقوط العملاء، والرقابة، وإغلاق الحدود المحايدة. ومن الطبيعي أن يتراجع في بداية الحرب خاصة عدد المعلومات التي ترد عن هذا الطريق». يتحدث هذا النص عن تجارب المكافحة الألمانية، مع أن وسائل أخرى لاستطلاع العدو كانت متوفرة في بداية الحرب، كان الاستطلاع البرقي ولا زال أهمها على الإطلاق. هذا ما يجب أن يعرفه الرأي العام، كي يتخلى عن تصورات قديمة كثيرة حول أهمية الجاسوسية بالنسبة لحسم الحرب. ومن الضروري أن يعرف أخيراً أن المكافحة لم تكن تحمل، عند بداية الحرب، العبء الرئيس في جلب المعلومات السرية، بل قام الاستطلاع البرقي بذلك. لم يكن الاتحاد السوفياتي خاصة ميدانا يعج بالجواسيس، لكن الجيش الأحمر كان يستخدم اللاسلكي، ويفرط في استخدامه بطريقة غير منضبطة أحياناً، حسب الضرورات. ذلك كان كعب آخيل، الذي مكن الاستطلاع البرقي الألماني من اختراق أسراره، وإيصال آذانه إلى مقرات السوفيات الرئيسة، ومناطقهم الخلفية، وقبل كل شيء مواقع قادتهم القتالية، رغم أن وكالة أنباء العدو في الجيش كانت تستطيع أن تغرف من بحر، بعد قليل من بداية الحرب يوم 22/ 6/ 1941، بفضل اعترافات الأسرى والوثائق التي غنمتها، وكان بوسعها تكوين صورة صحيحة عن العدو، تظهر تنظيمه وقوته، وتبين نواياه المسبقة. غير أن هذه الموارد شحت أكثر فأكثر منذ سنة 1943، إلى أن نضبت بصورة تامة تقريبا، بينما

كان الاستطلاع البرقي يؤدي وظائفه، ويجلب معلومات غنية من «مصدر موثوق». فكيف تمكن من تحقيق هذا، واستطاع ملء الفراغ، الذي خلفه مكتب المراسلات السرية وراءه؟. وماذا يعني هذا الإنجاز؟. هذا ما سنحاول الإجابة عنه. ثمة أساس نفسي يستحق بالتأكيد أن نوليه اهتماماً خاصا في هذا السياق، هو الحادثة الأولى التي عاشها فيلجيبل عند بداية الحرب سنة 1914. لقد كانت نوعا من الكابوس بالنسبة إلى المفتش العام اللاحق للاستخبارات، هي أن النظام البرقي الخاص قد أخفق آنذاك، وأمد الفرنسيين بمعلومات على درجة كبيرة من الأهمية، قرأ عنها بعد الحرب في كتاب الجنرال الفرنسي مارسيل جيفيير. إلى هذا، فإن نجاحات النمسويين، التي تعرف إليها خلال خدمته في جيش ماكنزن، كانت حوافز قوية بالنسبة له، دفعته إلى العمل على محو جراح 1914. هذه المحرضات القوية نقلها فيلجيبل إلى سلاح الإشارة، فأنجبت الجذرية الألمانية وأوقات تدريب جنود جيش الرايش الطويلة كادرا متخصصا من الطراز الأول، وصار هناك عند بداية الحرب سنة 1939 متخصصون رفيعو التأهيل في اللاسلكي، وهيئة سلاح إشارة قيادية مدربة تدريبا تقنيا شاملا. أما أساس نجاحات الاستطلاع الألماني في الحرب، فيرجع بصورة خاصة إلى خدمة التنصت الممتازة للاستطلاع البرقي.

هذا لا يعني أن الأعداء لم يحققوا نجاحات بدورهم. لقد بلغوا هم أيضاً شأوا رفيعا في تقنية اللاسلكي، جعل من الإنجليز، على سبيل المثال، نموذجا يستحق التقليد، في كل ما يتعلق بنظام تشغيل اللاسلكي، مع أنهم لم يطوروا مطلقا، ولم يكونوا بحاجة إلى تطوير، نظامهم في التنصت، كي يصير سلاح المكافحة عندهم فاعلا كالاستطلاع اللاسلكي الألماني في الشرق منذ سنة 1942[56]. من الضروري التأكيد، من وجهة نظر تاريخ الحرب، على دور الاستطلاع الألماني، ووصف إنجازاته بالتفصيل، التي

كانت مؤثرة إلى درجة عوضت غالباً عن النقص في الاحتياطي البشري، وأمكن بفضل معلوماتها القضاء مراراً وتكرارا على نوايا العدو الهجومية في مهدها، وتشتيت تجمعاته.

شهدت الحرب العالمية الثانية توسعا دائما في بناء الاستطلاع اللاسلكي الألماني، وفي تحسينه. وما إن جاءت سنة 1943، حتى كانت كتائب كثيرة متخصصة في الاستطلاع بالراديو والاستطلاع القريب قيد الاستخدام، خاصة على الجبهة الشرقية، حيث تم تجميعها في شعب استطلاع قائمة بذاتها داخل الجيوش، بينما كان لدى كل مجموعة جيوش قائد استطلاع، ينسق عن كثب مع ضابط شعبة الأركان الثالثة، المكلف بتقويم أوضاع العدو. لنستمع إلى ما يقوله بهذا الصدد خبير على درجة رفيعة من التأهيل هو العقيد راندیفیج، الذي سنقتبس نصا من تقرير غير منشور له[1]: نسق ضابط شعبة الأركان الثالثة في الجيش مع ضابط الأركان العامة في شعبة القيادة، المكلف بمتابعة وضع العدو، ومع شعبة الاستطلاع العاملة في قطاع الجيش، وتم التنسيق بنجاح متزايد منذ سنة 1943، ذلك أنه كان يكلف الشعبة الأخيرة بالمهام المتعلقة بالمناطق ونقاط الثقل، المطلوب منها رصدها، وبمهام الاستطلاع، ويتلقى من كتيبة الاستطلاع القريب نتائج الرصد والتنصت التكتيكي في قطاع الجيش، وتصله من كتيبة الاستطلاع البعيد نظرة إجمالية عن المجريات العملياتية لدى العدو. بما أن الكتيبة كانت في وضع يمكنها من فك مفاتيح الشيفرات البسيطة، فإن النشرة البرقية اليومية كانت تحتوي معلومات كثيرة، يتم جمعها من رصد الاتصالات المعادية وسبرها، ومن مضمون رسائل العدو البرقية، التي أمكن قراءتها.

(1) مخطوطات كونيبرت راندیفیج: تجارب لدى رصد خدمات العدو البرقية (110 صفحات). وهو في عهدة المؤلف.

كانت المواد التي تصل إلى مجموعات الجيوش أكثر ثراء وغنى، فقد كان يضاف إليها تقويم مضمون الرسائل البرقية المعادية، التي كانت صعوبة ترميزها تتناسب وأهميتها، لكن رموزها سرعان ما كانت تفك[57]. هكذا نشأ غالباً تعاون وثيق بين قائد الاستطلاع وضباط شعبة الأركان الثالثة، ارتفع إسهامه حتى سنة 1943 إلى 75 ٪ من إجمالي المعلومات التي كان يتم الحصول عليها، وبقي على حاله إلى نحو سنة 1944، عندما جلبت وحدات الاستطلاع، بما في ذلك الاستطلاع البعيد، 95 ٪ من إجمالي المعلومات الاستخبارية، فغابت الجاسوسية التقليدية بصورة فعلية. هذا ما أدركه في مرحلة الحرب الأخيرة الجنرال المارشال الميداني كيسلرنج، قائد الجبهة الغربية الأعلى. فلا عجب أن صار من مألوف معظم الجيوش أن يقدم قادة استخباراتها ذاتهم تقارير شفهية تتضمن نتائج الاستطلاع البرقي لـ«الوضع»، كما يخبرنا راندیفیج.

سمح جمع المعلومات من الأثير بتكوين نظرة دائمة عن النوايا المعادية. لذلك يمكن أن يوافق المرء على الحكم الإجمالي والخبير للكابتن خارج الخدمة هاينس بوناتس، الذي يقول[1]: «ليس بالإمكان التفكير بوسيلة استطلاع أسرع وأوثق وأرخص من استطلاع لاسلكي ناجح»، حيث يجب التمييز، من حيث المبدأ، بين التنصت، وفك رموز النصوص المشفرة، وأخيراً التقويم.

أخيرا، كانت المعلومات السرية تصل جميعها إلى مقر القيادة في القيادة العليا للقوات المسلحة، حيث كانت أصعب الرسائل المشفرة تقرأ من قبل المختصين، وكان مضمونها ينقل بصورة فورية إلى شعب «الجيوش الأجنبية». أما التعاون بين الشعب والقيادة فكان يضمنه ضباط ارتباط تابعون

(1) هاينس بوناتس: استطلاع البحرية الألمانية البرقي 1914–1945. دارمشتات 1970، ص 31.

لها. كما كانت المعلومات الأكثر أهمية، الآتية من «مصدر موثوق»، تقدم بصورة دائمة إلى رئيس أركان قيادة القوات المسلحة، أو تقرأ عليه. وقد انفرد هتلر، القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية، وقائد الجيش الأعلى منذ عيد الميلاد سنة 1941، برفض تلقي هذه المعلومات[58]. ولم تغير موقفه الهزيمة أمام موسكو، وكارثة ستالينجراد وأفريقيا، وضربات «القلعة» المعاكسة الشديدة في صيف سنة 1943. لقد كان على القيادة الأعلى أن تتخذ من بلاغات «الجيوش الأجنبية شرق» أساسا لقراراتها، خاصة وأن هذه أخبرتها في وقت مناسب بجميع تحركات ونوايا العدو المسبقة، استنادا إلى معلومات استقتها من الاستطلاع البرقي[59].

من الضروري الإشارة في هذا السياق إلى مصدر سري آخر للمعلومات، أكملت معلوماته في مجريات الحرب معارف الاستطلاع البرقي وعمقتها، مع أن تأريخ الحرب لم يعره أي اهتمام على وجه التقريب. إنها المواقع الخارجية لقيادة القوات المسلحة العليا، وخاصة منها شعبة «الاقتصاد والتسليح»: التي عملت بخبرات رفيعة ذات تأهيل تقني خاص، كانت مهمتها قبل كل شيء فحص الأسلحة التي يتم غنمها، والتحقيق مع فنيي العدو ومهندسي وحداته الذين يقعون في الأسر. عندما كان التحقيق يجري كمحادثة تلقائية بين خبيرين، ويدور في إطار إنساني تواصلي، فإنها غالباً ما كانت تأتي بمعارف مفاجئة.

كان الموقع الخارجي للقيادة العليا للقوات المسلحة في مجموعة جيش الجنوب على الجبهة الشرقية تحت قيادة العميد الأمير رويس البارعة والناجحة، الذي حظيت كفاءته الخاصة باعتراف عام، وإن كانت إنجازاته قد نالت تثمين شعبة قيادة مجموعة الجيش أكثر مما لقيت القبول لدى قيادة القوات المسلحة العليا، حيث حال الروتين دون ملاحظتها. بالمقابل، كانت الجيوش الأجنبية شرق تشعر بالعرفان للأمير، بسبب المعلومات التي يحصل

عليها خلال التحقيقات، وتصلها بصورة فورية، فتكمل وتوسع وتعمق الصورة الإجمالية عن القدرة التسليحية السوفياتية[1].

2 ـ نتائج عملية

على عكس القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية، استخلص قادة مجموعات الجيوش والجيوش فوائد عملية كثيرة من وكالة أنباء العدو، بعد أن أثبتت نتائج الاستطلاع اللاسلكي العملياتية والتكتيكية قدرتها على إمدادهم بعون هائل، من الضروري إسناد قراراتهم وأوامرهم القيادية إليها. أصغى المارشال فون رونشتيدت، قائد أعلى مجموعة جيش الجنوب منذ سنة 1941، إلى قائد الاستطلاع التابع له العقيد كونيبرت رانيدفيج، لمعرفته بالقيمة الرفيعة للمعلومات، التي كان يقدمها إليه بصورة مستمرة[2]. والحق، أنه أمكن خلال التقدم الألماني في أوكرانيا الشرقية قراءة كل رسالة برقية للعدو على وجه التقريب، بما أن مستوى تأهيل جنود اللاسلكي الروس لم يكن يتيح لهم استخدام شيفرة صعبة آنذاك، ولأنهم انتقلوا في حمأة الاشتباك إلى الكلام الصريح، طلبا للراحة أو بسبب ضغط المعركة. عند الاستيلاء على كييف، وجد الألمان مفاجأة شريرة بانتظارهم، هي انفجارات شديدة دوت في المدينة وكبدتهم خسائر جسيمة. كيف حدثت هذه الانفجارات؟. واجه الألمان أحجية صعبة، قبل أن يكشف خبير استطلاع برقي من سلاح الإشارة أنها تفجيرات لاسلكية عن بعد تعمل بالموجات الصوتية. لقد فات وحدات التنصت الألمانية ملاحظة النبضات الخطيرة، بسبب انهماكها التام في الاستطلاع العملياتي. لذلك تقرر تخصيص سرية خاصة لها، ترصدها

(1) معلومة شخصية عرفها المؤلف من العميد هانس ـ آدولف بلمرودر، ضابط الأركان الثالث السابق في مجموعة جيش الجنوب[60].

(2) مخطوط راندیفیج: الاستطلاع البرقي الألماني ضد روسيا، الذي قامت به مجموعة جيش الجنوب. غير منشور، ص 14.

وتشوش على ترددها. بعد محاولات أولية فاشلة، استهدفت شل النبضات المفجرة للصاعق والحيلولة دون اشتغال غيرها، تحقق النجاح المطلوب. صحيح أن وسطي تدريب كتلة الجنود الروس كان لا يزال أدنى من مستوى تدريب جنود اللاسلكي الألمان، لكن الجيش الأحمر كان يمتلك أيضاً خبرات فائقة وتقنية لاسلكي متطورة، تماثل ما لدى أي واحدة من الأمم الصناعية القديمة.

حدث، في نهاية سنة 1941، أول تباين في تقويم الوضع بين قيادة القوات المسلحة وبين مجموعة جيش الجنوب، عندما ظهرت من جديد في الرسائل البرقية التي تم فك رموزها أرقام الفرق، التي كان يعتقد أنه تم تدميرها. في الوقت ذاته تقريبا، تم التقاط شبكة لاسلكي قصيرة الموجة في العمق الروسي، كان من الواضح أنها تستخدم في الاتصالات بين مرافق التسليح. اعتبرت أركان قيادة القوات المسلحة هذا النبأ مناورة تضليلية روسية، بيد أن الاتصال البرقي كان يشير في الحقيقية إلى انبعاث الجيش الأحمر، بعد هزائم أشهر الحرب الأولى الشديدة. إلى أي حد وصل هذا الانبعاث؟. هذا ما ظهر قرب نهاية السنة، وكان مفاجأة للقيادة الألمانية، التي أجبرتها قوة الهجمات السوفياتية على إخلاء روستوف في جنوب الجبهة الشرقية، بينما اكتشف الاستطلاع البرقي الألماني في تشرين أول/أكتوبر عشر وحدات كبيرة وهي تحتشد في مناطق البلاد الخلفية. لم يول «فوق» أي أهمية لهذا النبأ، جريا على عادته في الحالات الأخرى أيضاً. لذا، كتب العماد هالدر حول محاضرة الفوهرر يوم 6 كانون الأول/ديسمبر سنة 1941: «إنه ـ هتلر ـ لا يقبل الحديث عن النظرة التي تهتم بالجانب العددي من علاقات القوى»[1].

(1) نقلا عن فارليمونت، ص 256: «اعتقد عن العدو ما أعجبه الاعتقاد به، ورفض غالبا مجرد الاستماع إلى ما لم يعجبه».

بالمقابل، تعلم الجيش الأحمر من الأخطاء التي ارتكبت سنة 1941 في مجال الاتصالات اللاسلكية. اتضح هذا صيف سنة 1942: خلال الهجوم الألماني في تموز، الذي انقض على الدونيتز بأسره، ووصل إلى الدون بين روستوف وفورونيش، بينما بقي الاستطلاع الألماني غير مجد: «لقد بدا وكأن الفرق الروسية تتفادى المعركة بالإحجام عن استخدام اللاسلكي، فلم تعد ممكنة ملاحقة اتصالات القيادة العليا البرقية، التي كانت خاضعة للرقابة الدائمة إلى الآن. أما في جبهة الدون الشمالية، فبدا وكأن شخصية خارقة تشرف على قيادة الاتصالات البرقية الروسية هناك»[1].

هذه الصورة تغيرت في آب/أغسطس من سنة 1942، حين: «أفلح الألمان في كشف رموز قسم كبير من الرسائل البرقية السرية، التي تم كشف مضمون أكثرها من جديد. يفسر ذلك توزع القوى على جبهة ستالينغراد الجديدة التشكيل على جسر الدون ـ الفولغا الأرضي. لم يتوقع الألمان الحصول على نتائج شاملة عبر نجاحاتهم هذه، في أعقاب تجارب مطلع الصيف. أما تفسير موقفهم هذا، فنجده في رسالة برقية روسية تقول إن العدو لم يستطع الالتزام بالتقييد المطلوب لاتصالاته اللاسلكية، بسبب النقص في اتصالاته السلكية. لقد كان الاستطلاع الألماني مجبرا على استخدام اللاسلكي من أجل إيصال تقويمه لوضع العدو، الذي يبدو أنه كان يعرف بدقة ضعف الجيشين الروماني والإيطالي، وبالثغرة الحساسة بينهما»[2].

هكذا جرت حرب الأثير سنة 1941/ 1942 لدى مجموعة جيش الجنوب التابعة للمارشال روندشتيدت.

(1) مخطوط راندیفیج، ص 10وما يليها.

(2) راندیفیج، ص 11.

جلبت سنوات الحرب التالية نقاط ثقل أخرى معها، فقد حصل تطور مأسوي في حملة أفريقيا خاصة، التي قادها المارشال اللاحق رومل، حيث أثبت الاستطلاع اللاسلكي أنه أسرع وأفضل طريقة للحصول على المعلومات عن العدو. وحدث شيء مماثل كذلك، عندما شن الجيش المدرع الأول هجوما في آذار/ مارس 1944 كسر به طوق كامنس بودولسك، بفضل المساعدة التي قدمها له الاستطلاع البرقي. والحق، إنه كان يمكن تحقيق إنجازات أكبر، لو أن القائد الأعلى، هتلر، كان يقبل الإصغاء إلى معلومات الاستخبارات السرية.

3 ـ رومل والاستطلاع الاستخباري في أفريقيا

كانت الحملة الألمانية في أفريقيا تضم عند انطلاقها من ليبيا في شباط/ فبراير سنة 1941 سرية تنصت واحدة، تم بطلب من رومل توسيعها إلى كتيبة، في سياق حرب الحركة الناجحة، التي بدأت فيما بعد. وقد ألحق بهذه الكتيبة خبراء في فك الشيفرة، جمعوا خبرتهم من التعامل مع الاتصالات اللاسلكية البريطانية. منذ تلك اللحظة تلازم اللاسلكي و«ثعلب الصحراء»، الذي عرف كيف يستخدمه كأداة قيادة واستطلاع، وهو الذي كان يفضل القيادة من موقع أمامي يضع العدو تحت عينيه مباشرة، ويمتلك استعدادا دائما لاستغلال أي بارقة نجاح تلوح له، ولتكوين نقاط ثقل مفاجئة. إنه لم يكن، ببساطة، مغامرا، بل كان سريع البديهة بمعنى الكلمة الحرفي، يعتمد، بعد تجاربه في حملة الغرب، على سرعة إدراكه الخاطفة للوضع، مع أنه لم يكن يأخذ قراراته من دون العودة إلى مستندات أكيدة، كان يتلقاها من استطلاعه البرقي، الذي تحسن وازداد أهمية من شهر لآخر، خاصة وأن تفوق سلاح الجو البريطاني كان يتعاظم من دون توقف، إلى أن بلغ سنة 1942 حدا من القوة مكنه من الحيلولة بين سلاح الجو الألماني وبين

إلقاء نظرة على ما كان يجري وراء خطوط القتال. في هذا الظرف، عمل الاستطلاع البرقي على سد هذه الثغرة، وكسب ـ أول الأمر ـ حرب الأثير.

يجب أن يسجل جزء كبير من نجاح رومل عند بداية الحرب في أفريقيا على رصيد سلاح الاستطلاع السري هذا: إنه نتيجة الاستطلاع الذي قامت به كتيبة التنصت، التابعة لجيش أفريقيا الألماني، التي كانت مؤهلة من الناحية التقنية لتلبية متطلبات حرب الصحراء الخاصة، ومستعدة من الناحية التكتيكية لتحقيق مطالب رومل. كان نظام اللاسلكي التابع للجيش الثامن البريطاني يعاني آنذاك نقاط ضعف كبيرة، زاد منها أن استخفاف العاملين عليه بالاستطلاع البرقي الألماني، الذي أفاد من افتقار الوحدات، التي جاءت من مناطق الحماية ومستعمرات التاج البريطانيين، إلى انضباط لاسلكي.

من الطبيعي أنه كان هناك ثغرات في معلومات الألمان. لكن «ثعلب الصحراء» كان يعرف دائما قسمات وضع العدو العامة، وأحياناً تفاصيلها، ويعرف كذلك نواياه وتحركاته. كما أن بعض ضربات الحظ عملت لمصلحته[61]، منها مثلا شخص اسمه «جرينهورن»، وهو ضابط ارتباط أميركي مع الجيش البريطاني الثامن، استخدم الراديو الخاص به بكثافة شديدة وبث بحماسة نوايا حليفه البريطاني في الأثير، فشارك رومل في قراءتها عبر كتيبة التنصت التابعة له[62]، واستطاع اتخاذ تدابيره المضادة، والاحتفاظ بالمبادرة.

لم يصل أي شيء عن إنجازات كتيبة التنصت إلى الأعلى، لأن رومل كان يعرف ازدراء هتلر للاستطلاع البرقي. ذلك كان سببا إضافيا لبقاء إنجازاته في الظل، ولإحجام تاريخ الحرب عن ذكرها. حسب شاهد ثقة[1]، لم تعرف الحرب العالمية الثانية كتيبة تنصت أخرى على الجانب الألماني،

(1) معلومة شخصية أدلى بها الجنرال براون إلى المؤلف.

تعاونت بهذا القدر من القرب والنجاح مع قائدها الأعلى، مثلما لم يعرف موقع آخر ترجمت فيه المعلومات الاستخبارية إلى قرارات بالسرعة التي شهدتها حملة أفريقيا.

ثمة ضربة حظ أخرى دعمت هذا التعاون الوثيق: فقد أسرت غواصة ألمانية صيف سنة 1942 سفينة تجارية معادية في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. عند تفتيش الغنيمة العائمة، عثر الألمان على المفتاح البرقي الخاص بتموين أقسام القوات المسلحة البريطانية جميعها: من جبل طارق إلى مصر. لحماية المستندات القيمة وتقويمها، تلقت الغواصة الأمر بالعودة إلى مرفئها اليوناني الأصلي، فأمكن طوال أربعة عشر يوما قراءة جميع الرسائل البرقية الخاصة بشبكة التموين، واتخاذ تدابير مضادة في البحر والجو. ذلك أفاد قبل كل شيء الإمداد الألماني نحو شمال أفريقيا، علما بأن الجانب الآخر لم يعلم ما كان يجري، ولم يقطع اتصالاته البرقية طوال الأسابيع الستة، التي تطلبها وضع مفتاح جديد، وتزويد المعنيين جميعهم به بواسطة سعاة البريد.

كسب رومل، صيف سنة 1942، جولتي حرب الأثير الأوليين. لكنه لم يتبجح أو يتباهى بذلك، بل اكتفى بأن تكون في حوزته مستندات أكيدة يرسم بمعونتها تكتيكه الغني بالخيال والذكي وعملياته الشديدة المكر؛ مستندات لطالما أكملها هو نفسه بالاستطلاع البصري. عندما كان يجتاز المسافات في عربة القيادة، كان يأمر بإيصال ما يتوفر من معلومات عن العدو إليه دون إبطاء. ولأن هذا كان أمرا بديهيا في نظره، فإنه لم يؤكد عليه في مذكراته الموسومة «حرب دون حقد».

بالمناسبة، تأكد الاستطلاع البرقي ذات مرة من واقعة غريبة، هي وجود فوج ألماني يرابط في الموقع الصحراوي بير حكيم، إلى الجنوب الغربي من

طبرق، يضم شيوعيين ألمانا ويقوده لودفيج رين، الذي كتب تقريراً أثار اهتماماً واسعا تحت عنوان الحرب، وكان اسمه الحقيقي هو ارنولد فيث من مدينة جلوسناو. هذا الفوج الشيوعي بعث نداءات مساعدة ملحة عبر الأثير، إلى أن انهار مع الاحتلال الفرنسي بقيادة الجنرال كونيج.

تزايدت أهمية الاستطلاع البرقي في أفريقيا مع تزايد فشل سلاح الجو الألماني، وتعزز قوة الجيش الثامن البريطاني. كان التفوق الجوي البريطاني يأخذ أشكالا مقلقة أكثر فأكثر، هددت قنابلها القوات والأركان العليا، وقبل هذا وذاك الإمداد من البر والبحر. غير أن هتلر رفض تصديق هذه المعلومات، وأصر على شن هجوم أخير في العلمين باتجاه القاهرة، بنتيجته السلبية المعروفة: رغم أن المفتش العام لسلاح الجو الجنرال ميلش كان قد اعترف أمام مساعديه بـ«أن الحرب يمكن كسبها بسلاح الجو وحده، وأن أي حرب يجب أن تعتبر في حكم الخاسرة، إذا لم يكن التفوق الجوي نقطة الثقل والارتكاز، في المواقع التي تمس الحاجة فيها إليه ـ ليس في المجال الجوي بأسره، بل في المواقع الأكثر أهمية –، وأنه ليس بمستطاع القوات البرية إحراز النصر من دون تفوق جوي، أو سيطرة جوية»[1].

هذا ما خبره رومل بدوره في المرحلة الثالثة من حملة أفريقيا، حيث اكتملت هزيمة العلمين بكارثة إضافية هي فقدان كتيبة التنصت، مع جميع النتائج المترتبة عليه. هكذا، لم يخسر رومل المعركة على الأرض فقط، بل خسر معركة الأثير أيضاً، إذ جعل التفوق الجوي البريطاني قيادته عمياء، وكان ضياع الكتيبة قد جعلها صماء. من الآن فصاعدا، لن تكون أذن رومل في مراكز قيادة العدو، فحدث الإنزال الأميركي والبريطاني في تشرين الثاني/

(1) إيرفينج: مأساة سلاح الجو الألماني، ص 251.

نوفمبر سنة 1943 على أراضي المغرب والجزائر بطريقة فاجأتة[1]. في ظروف كهذه، كان من شأن استراتيجي حقيقي أن يأمر بالتراجع، لإعداد أوروبا نفسها للدفاع، لكن استراتيجية استباقية وبعيدة النظر كهذه لم تكن جزءاً من رؤية القائد الأعلى لقوات ألمانيا المسلحة.

4 ـ الكتيبة الضائعة[2]

ارتكب رومل بدوره خطا مصيريا، حين استخدم كتيبة التنصت كوحدة مقاتلة في موقعة العلمين، عندما وضعه نقص المشاة لديه في وضع عصيب. عوض أن تبقى قرب أركان القيادة، أمرت الكتيبة بالانتشار مباشرة وراء قطاع يدافع عنه الإيطاليون. هذا القرار كان خاطئا، بما أن الكتيبة كانت أضعف بكثير من أن تستطيع تحقيق المهمة التي أسندت إليها. في نهاية تشرين الأول/أكتوبر سنة 1942، تم اختراق الجبهة عند هذا الموقع، ودحرت الكتيبة، بعد أن أبدت مقاومة يائسة خسرت خلالها مئة رجل، وأسر قائدها المقدم سيبورن، الذي أصيب بجروح خطيرة ومات بعد قليل في مشفى بالقاهرة. كما كان الاختراق مفاجئا إلى درجة أن الكتيبة لم تتمكن من تدمير أجهزة التنصت، فغنم المهاجمون ليس فقط تقويم الألمان لتطورات الفترة الأخيرة، بل كذلك مستندات اللاسلكي الألمانية والإيطالية ومفاتيحها، التي مكنتهم من معرفة أخطاء وإهمالات مبرقيهم وقادتهم. وقد عبروا عن سعادتهم بنجاحهم في البرامج التي بثتها إذاعة القاهرة باللغة الألمانية: «لقد وقع المقدم العظيم سيبورن في الأسر وقد أصيب بجروح شديدة. ونحن نشكركم على المواد الممتازة والواسعة، التي وقعت في يدنا»[63].

---

(1) حسب معطيات أست هامبورغ كان هناك معلومات حول الإنزال، لكن قيادة القوات المسلحة العليا لم توزعها.

(2) نتابع هنا إلى جانب المعلومات الشخصية التي أبلغني إياها جنرال براون مخطوط راندیفیج، قسم «أفريقيا ـ الشرق الأدنى».

بخسارة معركة الأثير في أفريقيا، زادت كثيراً صعوبات الانسحاب الألماني، الذي كان سينفذ بسهولة أكبر وستكون آثاره السلبية أقل، لو بقيت كتيبة تنصت حملة أفريقيا قائمة، ولم تقع مستندات مفاتيحها في يد الجيش الثامن البريطاني. من تلك اللحظة فصاعدا، لم يكن باستطاعة رومل التفكير بقيادة مرنة وشن ضربات معاكسة خاطفة، مثلما حدث في المراحل الأولى من حملة أفريقيا. ولا شك في أن الإحباط الناجم عن الوضع الجديد لعب دوره في مرضه.

عندما ألحق مؤلف هذا الكتاب في حزيران/يونيو من سنة 1943 بالمارشال، عقب خسارة أفريقيا، كي يدون المعطيات التي سيتضمنها تقرير ختامي موجه إلى الرأي العام، ألمح رومل إلى دور الهزيمة في مرضه. أما التقرير، فهو لم ينشر أبدا، لأنه اختفى في أدراج مكاتب هتلر.

كانت إبادة كتيبة التنصت الأفريقية ضربة شديدة بالنسبة لمجمل الاستطلاع اللاسلكي الألماني، الذي لم يفقد فقط كتب شيفرات سرية وتجهيزات قيمة مقاومة للحرارة، بل خسر قبل هذا وذاك خبراء راديو لا يمكن تعويضهم. صحيح أنه كان لا يزال هناك كتيبة تنصت في أثينا، واصلت رصد الوضع العام في مصر والشرق الأدنى، لكن الرصد التكتيكي في شمال أفريقيا، وخاصة ذاك الذي مورس على الشاطئ الشمالي الغربي، زال لحظة غدت الحاجة فيها إليه شديدة، فلا عجب أن حدثت مطلع تشرين أول/أكتوبر مفاجئة أخرى في هذه المنطقة، عندما نزل الحلفاء الغربيون بقوى كبيرة بين الدار البيضاء ووهران. صحيح أن الألمان عرفوا عبر استطلاعهم اللاسلكي أن الأميركيين أرسلوا قوات كبيرة إلى إنجلترا، لكنهم لم يعرفوا هدفهم من ذلك، الذي بقي غامضا بالنسبة لهم، خاصة وأن شائعات منهجية وخدع برقية هادفة كانت تحجبه عنه.

من جانبها، خدعت لجنة الهدنة الألمانية في الدار البيضاء، على الرغم من ضباط شعبة المكافحة الذين كانوا قد ألحقوا بها. يقول الجنرال فارليمونت، نائب رئيس أركان قيادة القوات المسلحة الألمانية في تقريره الموسوم في المقر الرئيس للقوات المسلحة الألمانية[1]: «وكان هناك نقص في المستندات المقدمة من الاستخبارات الألمانية، وفي مستندات القيادة الإيطالية العليا، التي لم نعرف آراءها المنسجمة والمعللة إلا في وقت لاحق. وللعلم، فإن وقت الإنزال الوشيك لم يقدر بصورة صحيحة في الحالتين ـ مع أن أسطول الإنزال كان يتجه نحو الشواطئ الأفريقية ـ».

وصل أيزنهاور، حسب تاريخ الحرب العالمية الثانية، الذي وضعه تبلسكيرش، يوم 5 تشرين أول/أكتوبر إلى مقر قيادته المؤقت في جبل طارق. وكان مطار القلعة الصخرية قد امتلأ حتى التخمة بأسراب المقاتلات والقاذفات. لكن شعبة المكافحة الألمانية لم تلاحظ هذه الدلالة الأكيدة على قرب تنفيذ عملية الإنزال الكبرى، رغم العلاقات الجيدة، التي كانت تربط الأميرال كاناريس والإسبانيين. أم تراه كان هناك من خشي أن يناقض رأي القائد الأعلى المسبق، الذي اعتقد أن الإنزال في شمال أفريقيا ضرب من الاستحالة بسبب الغواصات الألمانية[64]؟

5 ـ الاستطلاع يساعد على إنقاذ جيش

تكوَّن آنذاك وضع فريد من نوعه بوجه عام، فالقائد الأعلى أراد ببساطة عمل كل شيء بطريقة مغايرة للطريقة التي كانت متبعة، بواسطة «قيادة للحرب ذات قطبيبة مضادة»، على حد تعبير اللواء شيرف مكلف الفوهرر بكتابة تاريخ الحرب. هذا ما قاله شيرف للمؤلف عندما قدم نفسه في مقر

(1) مرجع سابق، ص 279.

الفوهرر الرئيس في آذار/مارس من سنة 1943. كان هتلر يعتقد أن هذا نمط قيادة الحرب الجديد سيمكنه من استكشاف طرق جديدة للنجاح، تتيح له انتهاك المعاهدات الدولية، وتقوم على عدم التخلي عن موطئ قدم واحد من الأرض. إن الدفاع المستميت عن موضوعات ما، الذي أثبت جدواه إبان الحرب العالمية الأولى، في ظروف مختلفة تماماً عن ظروف الحرب العالمية الثانية، غدا منذ ذلك الوقت فصاعدا «بقرة هتلر المقدسة»، التي لم يسمح بأي نقاش حولها. بذلك نشأ في الأشهر الأولى من سنة 1944 وضع غريب جنوب الجبهة الشرقية، فبينما كان الجناح الأيمن صامدا في حوض الدنيبر الأدنى، كان الجناح الأيسر معلقا في الهواء جنوب مستنقعات بريبييت، فامتد قوس الجبهة الواسع، الذي اخترق أوكرانيا في اتجاه غربي شمال / غربي، بطريقة خطيرة، دفعت الجيش الأحمر إلى القيام بعملية تطويق جديدة. قبل حدوث الأزمة، تنبأت «الجيوش الأجنبية شرق» بقيادة الجنرال جيهلن بتوقيت الهجوم السوفياتي، الذي أمر قائد الجبهة الأوكرانية الأولى المارشال جوكوف بحشد القوات الضرورية له[65]. لقد كان واضحا من صورة العدو، التي قدمها الاستطلاع اللاسلكي الألماني، أن هناك قوات روسية قوية وجيوشاً مدرعة تتجمع للقيام باختراق في جنوب الجبهة الشرقية، وأن الجبهة الألمانية، التي غدت قليلة القوات، تفتقر إلى الاحتياطي العملياتي اللازم لصدها.

وبالفعل، اخترق جيش الحرس المدرع الثالث السوفياتي يوم 15 آذار/مارس 1944 الجيش المدرع الألماني الرابع غرب شيبتوفكا، نقطة تقاطع السكك الحديد المهمة، وتقدم جنوبا، ثم قطعت الطرق الخلفية للجيش المدرع الألماني الأول ـ آمره الجنرال هوبه ـ، وطوقت خمساً من وحداته من ثلاث جهات. ونجح جيشان مدرعان سوفياتيان آخران هما الرابع والأول حتى الخامس والعشرين من آذار/مارس في تحقيق تقدم عميق إلى الغرب

من كامنيز بودولسك بين نهري زبروتش وسيريث، وإلى الجنوب الغربي أيضاً وتوغلا إلى الجنوب، واجتاز الجيش المدرع السوفياتي الاول نهر الدنيبر وواصل تقدمه في اتجاه تشيرنوفيتز، بينما استدار الجيش الرابع شمال الدنيبر في اتجاه الجنوب. وكان مقدرا للطوق أن يضيق أكثر على الألمان، بفضل الهجمات اللاحقة لجيشي حرس سوفياتيين في الشمال، لكنه تم سحقهما. هكذا غدا وضع المدافعين الألمان في منطقة كامنيز بودولسك الكبيرة مهددا، وبدا أنه يصير ميؤوسا منه بمرور كل يوم.

لإبقاء جميع حالات الانسحاب نحو الجنوب ممكنة، شكل الجنرال هوبه مجموعة قتالية احتلت رأس جسر على ضفتي الدنيبر قرب هوتين. لكنه أولى اهتماماً خاصا قبل كل شيء لعدم بقاء جيشه ساكنا، لاعتقاده أن الحركة وحدها تتيح له اختراق الطوق.

سيتدخل المؤلف هنا ليروي مشاهداته. فقد ألحق بين آذار/ مارس 1943 وبداية آذار/ مارس 1944 بشعبة قيادة مجموعة جيش الجنوب ـ بقيادة المارشال الميداني فون مانشتاين ـ. ثم أرسل موقتا إلى الغرب، ثم ما لبث أن أمر بالعودة إلى الشرق، حيث عايش الخروج الناجح للجيش المدرع الأول من طوق كامنيز بودولسك، وكان أول الأمر في مقر مجموعة الجيش الرئيس قرب لامبرغ، ثم مع الجيش المدرع الأول. وكتب تقريراً رسميا عن كسر الطوق وزع على أعلى أركان مجموعة الجيش.

تعرف المؤلف آنذاك إلى أهمية الاستطلاع اللاسلكي الكبيرة بالنسبة إلى القرارات العملياتية، وتعلم تقديرها، وتحدث عنها في أحيان كثيرة مع ضابط شعبة الأركان الثالثة في مجموعة الجيش، العقيد بلومرودر، الذي كان مكلفا بمعالجة وضع العدو.

منذ فقدان المبادرة الألمانية، الذي أعقب لبعض الوقت فشل عملية «القلعة» في صيف سنة 1943، تحول الاستطلاع اللاسلكي إلى شيء يستحيل

الاستغناء عنه، لأنه لم يعد هناك منذ ذلك الوقت أسرى أو وثائق مستولى عليها، وقبل كل شيء عدد كبير من الفارين الراغبين في الكلام. وقد فكر المختصون الخبراء في الاستطلاع اللاسلكي ببديل، وكان قد سهل عملهم استرخاء المبرقين السوفيات وما نجم عن ذلك من أخطاء، تعاظمت مع نجاحات الجيش الأحمر الميدانية.

هكذا كان لمجموعة جيش مانشتاين في منعطف سنة 1943/ 1944 «جواسيس أفذاذ» في المقر الرئيس للجبهة الأوكرانية الثانية وكذلك في معظم المواقع القتالية لقادة الجيش الأحمر. لقد كانوا يعرفون عمليا كل شيء يجري هناك ويوصلونه دون إبطاء إلى وجهته. وقد أعلم مانشتاين، مثلما أعلم رومل في حينه، بطريقة سريعة وأكيدة بكثير من أوامر الطرف المعادي ونواياه. ولاحقت شعبة قيادة مجموعة جيش الجنوب تفاصيل تقدم الجيشين المدرعين غرب طوق كامنيز بودولسك، وأخبرت مانشتاين بمجرياته أولا بأول. كان التعاون في شعبة القيادة وثيقا، وتم التنصت بصورة متواصلة على راديو المقر الرئيس للجيشين السوفياتيين في الغرب، وفكت شيفراته، فعرف الألمان بدقة وضع الخدمات في المناطق السوفياتية الخلفية، بل إن ضابط شعبة الأركان الثالثة كان في وضع مكنه من تحديد عدد الدبابات الجاهزة للاستعمال في كل كتيبة سوفياتية مدرعة، ومسار الهجمات السوفياتية وأهدافها، عندما كان يقدم تقريره عن حال العدو ظهر كل يوم ومساءه.

لهذه الأسباب، يخلص باول كاريل في تقريره «أرض محروقة»، الذي يدور حول موضوعنا، إلى الاستخلاص الآتي: «يتأكد هنا مرة أخرى أين توجد في الحرب منابع المعلومات المهمة والموثوقة، ويتأكد أنها تبز في نوعها وكمها معلومات أي مستطلع أو جاسوس، هذا إذا نحن تجاهلنا

المباشرة والسرعة، اللتين تجتاز المعلومات بهما الجبهات. إن أي جاسوس لا يستطيع المنافسة هنا، مهما كان فذا»[1].

في آذار/ مارس سنة 1944، أثبت السلاح الصامت لاستطلاع اللاسلكي في الشرق أنه أداة مساعدة لا مثيل لها، حين أشار إلى الطرق الصحيحة لكسر الطوق المضروب حول الجيش المدرع الأول، وقدم عوناً حاسماً في إنقاذ ربع مليون جندي من الهلاك. بفضل فن القيادة الذي أبداه المارشال فون مانشتاين خارج الطوق، وتصميم الجنرال ذي اليد الواحدة هوبه داخله، أمكن تفادي ستالينغراد ثانية، واستقرت الجبهة الشرقية من جديد في إطار ما هو ممكن، وتحولت مرة أخرى كارثة مهددة إلى نجاح دفاعي، رغم الخسائر الرهيبة في الدبابات والمدافع والسيارات.

شهد المؤلف هذه الأحداث، بعد أن عاد أواسط آذار/ مارس مرة أخرى من فرنسا وانضم مجددا إلى شعبة قيادة مجموعة الجيش، التي كانت آنذاك في مدرسة زراعية قرب لامبرغ. وكان يرى، في شعبة الاستخبارات التي عمل فيها دوما، خريطة تبين حال العدو يوما بيوم، ويقرأ تقارير آتية «من مصدر وثيق». وغدا شاهدا على الصراع من أجل تقرير مكان الاختراق. فقد أراد الجنرال هوبه ورئيس أركانه القيام أول الأمر بمحاولة لفك الطوق في الجنوب، باتجاه رومانيا، لأن الطوق حول الجيش لم يكن قد أغلق بعد تماماً هناك. لكن مانشتاين رأى مساوئ هذا الخيار ومخاطره بمنظار مزدوج: فقد كانت هناك طلائع دبابات روسية تقوم بإحكام الطوق الحديدي في الجنوب، لتصل من هناك إلى معبر الدنيبر. وكان سينشأ ثقب هائل في الجبهة الشرقية الألمانية، في حال نجح الاختراق، سيفتح طريق السوفيات نحو غاليسيا في اتجاه الغرب. وهذا ما كان يجب الحيلولة دونه

(1) باول كاريل: أرض محروقة، ص 396.

بأي ثمن. لذا، رغبت قيادة الجيش العليا أن يتم الخرق في اتجاه الشمال الغربي للانضمام إلى الجناح الأيمن للجيش المدرع الرابع، الذي كان مستعدا للقيام بهجوم معاكس في منطقة تقع جنوب غرب تارنوبول. بما أنه كانت ستنشأ في هذه الحالة فجوة كبيرة مع مجموعة الجيش (أ) (جنوب أوكرانيا)، توصلت قيادة مجموعة الجيش إلى قرار منطقي هو إصدار الأمر بالاختراق في اتجاه الغرب. صحيح أنه كانت هناك تحفظات ضد هذا القرار، بينها إشارة هوبه إلى وجود أنهار كثيرة تجري نحو الجنوب، سيكون من المحتم عبورها، إلا أن هذه العقبات اعتبرت في النهاية أهون الشرور، التي يجب مواجهتها، خاصة وأن الاستطلاع اللاسلكي أكد وجود «مواضع رخوة» في هذه المناطق من الطوق السوفياتي، حيث إن كتلة المشاة الروس الكبيرة، التي كانت تتبع الوحدات المدرعة القوية نحو الجنوب، كانت لا تزال في المؤخرة، ولم يكن بوسعها بعد فتح الجبهة. إلى هذا، اذاع الألمان رسالة برقية أرادوا بها إقناع المارشال جوكوف أنهم سيقومون بالاختراق في اتجاه الجنوب، وأعطوا عمليتهم هذه اسما سرياً هو «ليتزمان»، فاعتقد جوكوف أن الاختراق الألماني لن يتم في اتجاه الغرب.

في نهاية شهر آذار/ مارس، كان الطوق قد أغلق حول الجيش المدرع الأول الألماني. وفي الثاني من نيسان/ أبريل وصلت رسالة برقية إلى أركانه العليا تطالبها بإلقاء السلاح، ختمت بالجملة الآتية: إن سائر الضباط، الذين يقلعون طوعا عن المقاومة، سيوهبون بنادق قديمة وأوسمة ووسائط نقل!»، ثم جاء تصحيح يقول: «في الحادية عشرة وصلتكم برقية شوهت معنى اقتراح قائد الجبهة، مارشال الاتحاد السوفياتي جوكوف، وهو أن الجنود الألمان، الذين يلقون أسلحتهم طوعا، سيحظون بمعاملة لائقة، وسيقتل رميا بالرصاص أمام قواتهم قادة الوحدات الذين تلقوا عرض المارشال، إن هم رفضوا إيقاف المقاومة العبثية حتى مساء هذا اليوم. إنهم سيقتلون رميا

بالرصاص عقابا لهم على هدر دماء الجنود الذين ائتمنوا عليهم». التوقيع، قائد الجبهة المارشال جوكوف.

عندما أخبر الاستطلاع الألماني اللاسلكي المارشال مانشتاين والجنرال هوبه، الذي رفع إلى رتبة عماد بعد نجاح الاختراق، بالبرقية، قاما بخداع المارشال السوفياتي، ونجح الاختراق نحو الغرب. وقد أشار الاستطلاع إلى طرق الاختراق الملائمة، حيث كانت توجد ثمة «مواضع رخوة»، كما تم التغلب على العوائق النهرية. هكذا غلب ذكاء القيادة، وتماسك قوات الجبهة ومبادرتها، وأخيراً استطلاع وحدات التنصت الكم السوفياتي المهاجم، حين قام الفوج 48 وفوج الـ إس إس المدرع الثاني بهجوم من الشمال الغربي في اتجاه قوات الاختراق، واتحدا معها، لتتوطد الجبهة من جديد أواسط شهر نيسان/ أبريل على جانبي البخشاش على نهر الستريبا.

هل عرف السوفيات الجهة التي أبطلت انتصارهم في الدقيقة الأخيرة؟. إنهم لم يركنوا إلى الراحة، بل أرسلوا عملاء مزودين بأجهزة برقية وأنصارا مكلفين بمهام محددة إلى ما وراء خطوط الألمان. وقد قتل واحد من هؤلاء رميا بالرصاص قائد الاستطلاع اللاسلكي لدى مجموعة جيش الجنوب العقيد بارشيفيتز، الذي ذهب كي يتنزه، جريا على عادته اليومية، داخل حديقة في لامبرغ، فأتته الرصاصات القاتلة من الخلف، وتمكن قاتله من الفرار.

هل كان هذا مجرد قاطع طريق، أطلق النار بالمصادفة على بارشيفيتز، كما كان سيطلقها على أي ضابط ألماني آخر يمشي وحيدا؟. أم أن الأمر كان مهمة؟. وهل تقصى القاتل عادات العقيد، وكان الطرف الآخر يعلم أنه رجل يتسم بالجد والاجتهاد؟. ليس بوسعنا اليوم الإجابة عن هذه الأسئلة، وإن كنا نعرف شيئاً بعينه، هو أنه إذا كان للألمان استطلاع لاسلكي يوجه خطواتهم بصورة مستمرة، فإن من كان يقوم بهذا العمل لدى السوفيات هم

جموع من العملاء المزودين بالأجهزة البرقية وبالمتجسسين، المنتشرين وراء الخطوط الألمانية، ممن يعرفون الظروف المحلية، بل ويتحدرون غالباً من المنطقة ويعيشون بين سكانها كما يعيش السمك في الماء». كان هؤلاء يبعثون رسائل لاسلكية عن أي شيء يرونه أو يسمعونه، قبل أن يتلقوا مهام جديدة عبر اللاسلكي. في وضع كهذا، لماذا يحتاج المرء إلى وكالة رادو في سويسرا؟.

من الممكن أن يكون مقر جوكوف الرئيس قد عرف مهام العقيد بارشيفيتز. وربما كانت جهة أخرى عرفتها، فأصدرت أمرا بتصفيته. لم تنته الأمور بطريقة مأسوية بالنسبة إلى العقيد وحده، بل انتهت كذلك بالنسبة إلى قائد الجيش المدرع الأول الأعلى، وإن لأسباب مختلفة. فقد أمر هوبه بالذهاب إلى مقر الفوهرر الرئيس في بيرشتسجادن، كي يتلقى وسام الفارس. وكان هو راغبا في زيارة زوجته الشابة في برلين. في ضباب الصبح قامت الطائرة، التي كان يقودها طيار لا يعرف المنطقة، «باحتكاك غير إرادي بالأرض» ـ كما يقول التعبير التجميلي ـ على حافة مطار آيرينج قرب باد رايشنهال، فسحق هوبه في المقصورة التي كان يجلس فيها، بينما اقتصرت إصابة بقية الركاب على جروح وحسب.

وكان المؤلف قد زار هوبه قبل أيام قليلة من موته في مقره الرئيس في بخشاش. لقد كان في السرير بسبب حمى أصابته خلال الاختراق، لكنه كان في مزاج طيب وممتلئا بالفخر لقيامه بإنقاذ جيشه. أما مانشتاين، فهو لم يستمتع بفرحة النجاح الدفاعي، الذي لعب دورا مهما في قيادته: فقد تلقى أمرا في تلك الأيام الصعبة بالذهاب إلى بيرشتسجادن، حيث التقى بهتلر متردداً. لقد كان من العبث إقناعه بنتائج الاستطلاع اللاسلكي، مثلما كان يعرف مانشتاين ومرافقوه، لكنه أمكن انتزاع موافقته على القيام باختراق

الحصار في اتجاه الغرب. تلك كانت آخر إنجازاته القيادية، قبل ان يعفيه قائده الأعلى من منصبه يوم 30 آذار/ مارس، بينما عملية الاختراق جارية على قدم وساق، من دون أن يكون هناك أي سبب واضح لذلك، بل وبعد منحه وسام فارس قال هتلر خلال تسليمه له «لقد انقضى زمن العمليات. لست بحاجة اليوم إلا إلى من يصمدون»[1]. إن الصامد، الذي كان هتلر يحتاج إليه، كان المارشال الميداني مودل، الذي خلف مانشتاين كقائد أعلى لمجموعة جيش الجنوب. وقد كان مجدا، شجاعا ودوماً على الطريق. لكنه عجز هو أيضاً عن إيقاف الطوفان الأحمر، الذي تدفق بقوة متزايدة من الشرق نحو ألمانيا. وكانت طلائعه، أي العملاء المزودون باللاسلكي، وراء الجبهة الألمانية، يتلمسون نقاط ضعفها.

(1) إيريك فون مانشتاين: انتصارات ضائعة. بون 1953، ص 615. انظر أيضاً فارليمونت، ص 449.

obeikandl.com

الفصل الثالث

من الممارسة الحربية التاريخية

1

هناك قصص كثيرة تستحق الملاحظة في تاريخ الاستطلاع اللاسلكي خلال الحرب العالمية الثانية. لقد بقيت مجهولة إلى الآن، مع أنها نقلت إلينا من رجال ثقة، بينهم قبل كل شيء الجنرال براون والعقيد راندیفیج - بينوا لنا أنه كان هناك في مجال عمل الاستخبارات السرية مصادفات سعيدة، إلى جانب اليقظة والدأب والنهج الصائب، وان هذا أدى بضربة واحدة في الغالب إلى كشف أسرار الجانب الآخر العسكرية. حدث هذا في مجال الاستطلاع اللاسلكي، الذي سمي الاستطلاع العملياتي، مثلما حدث في الاستطلاع القريب والقتالي.

يميل الكتاب، الذين يشتغلون على قضايا الجاسوسية، إلى إعطاء الأولوية في اهتمامهم لظروفها المفعمة بالمخاطرة، ويسألون عن وزن المعلومات، التي أتت بها، ويبالغون في نتائجها ويرون أنها كانت حاسمة بالنسبة للحرب. رغم ذلك، لا تقدر معلومات الجاسوسية أن تصمد إلا في أندر الحالات بالمقارنة مع المعلومات، التي حصل عليها الاستطلاع الألماني البعيد والقتالي عبر سنوات كثيرة. وعلى سبيل المثال، فإن المعلومات السرية، التي أرسلها ألكساندر فوته باللاسلكي من سويسرا إلى موسكو بين 1941 و1943، ليست شيئاً يستحق الذكر بالمقارنة مع معلومات الاستطلاع.

كان فوته هاويا من الناحية العسكرية. وكان معظم من قرأوا كتابه «مرجع للجواسيس» أغراراً بدورهم. وإذا كانت قد نشأت تصورات مغلوطة تماماً في هذا المجال، فلأن الرجال الذين قادوا عمليات الاستطلاع اللاسلكي صمتوا - في ذلك الوقت أيضاً -. لقد حان وقت تصحيح هذه التصورات، وهو هدف تريد القصص التالية خدمته، علما بأنها أخذت في معظمها من تقارير لم تنشر بعد، ندين بمعرفتها لشخصيات قيادية في هذا الميدان، ويؤسفنا أن عدونا خلال الحرب لم يضع في تصرف الرأي العام مادة مساوية لموادنا في القيمة والحجم.

كان هناك على الجبهة الشرقية، بدءاً من سنة 1942، غنائم حصل عليها الاستطلاع اللاسلكي القتالي، قبل أي جهة أخرى، بصورة يومية تقريبا. وقد كان أمرا ملموسا آنذاك أنه تم فرض الانضباط اللاسلكي لدى السوفيات، الذين كانت حاجتهم إليه شديدة، بفضل نفوذ العماد بيريسبكين، الذي عرف نقاط ضعف الاتصال اللاسلكي العملية لدى وحدات الجبهة، وهي أن الروس يفرطون في استخدام اللاسلكي، بسبب فرحتهم البدائية بهذه اللعبة التقنية من جهة، والبنية التحتية لبلادهم من جهة أخرى، باتصالاتها اللاسلكية والطرقية الشديدة التخلف. كانت شبكة وسائل الاتصال السوفياتية هزيلة، إذا قارناها بمثيلتها في وسط أوروبا وغربها. لذلك انطلق الجيش الأحمر في بناء جهاز معلوماته من متطلبات أعلى مما كان بحاجة إليه، وأعطى الاتصالات اللاسلكية الأولوية على الاتصالات السلكية. هذا الميل ساد في الحرب العالمية الأولى، وتعزز في الثانية. غير أن هذه النزعة التقنية التقدمية لم تتطابق مع معرفة تأهيل المبرقين ومستواهم، فغلب استخدام اللاسلكي في حمأة الاشتباك بطريقة مفتوحة أو تم ترميزه كيفما اتفق، وغلب الميل إلى استخدام جهاز التخاطب البرقي، مما أتاح لاستطلاع الألمان اللاسلكي الفرص للاستماع والقراءة، التي استغلها بكل ما أوتي من قوة. أضف إلى

هذا أن الجنرال فيلجيبل، بخبراته الغنية منذ سنة 1914، أسهم بقوة في التطور اللاحق، الذي مكّن الاستطلاع اللاسلكي من الحصول على معلومات حاسمة بالنسبة إلى الحرب. لكن القائد الألماني الأعلى لم يدرك أهمية الفرص المتاحة، بسبب افتقاره إلى تأهيل حربي علمي، ولم يقدر معلومات المصدر الوثيق السرية حق قدرها، كما لم يطلب القيام بمهام استطلاعية، وإن كان قادة جيشه ومارشالاته قد عرفوا كيف يستخدمونها بنجاح، واستخدمها بفاعلية أيضاً قادة فرقه وجنرالاته القادة[66].

تحول الاستطلاع القريب والقتالي بدءا من سنة 1942 إلى السلاح السري الجديد، بفضل وحدات التنصت اللاسلكي، وخاصة منها تلك التي كانت تنشط على الجبهة الشرقية، والتي لم يكن ممكنا من دون معونتها بلوغ ولو توازن وقتي وجزئي مع القوة المفرطة والمتعاظمة للجانب المقابل. إن موزاييك المعلومات، التي تم جمعها من قطاعات الجبهات المختلفة، كان يتحول في شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» إلى صورة عامة حول الجيش الأحمر وحول توزعه على الجبهة، كان من المحال أن يأتي بها أي جاسوس، مهما بلغ من البراعة. هنا، كانت تتطابق تقريبا خرائط الوضع في مقرات السوفيات الرئيسة مع خرائط أوضاع العدو في الأركان الألمانية، وكان يعرف بدقة كبيرة احتياطيه الميداني، بشهادة الجنرال جيهلن، الذي قال في مذكراته[1]:

«... عاد الاستماع إلى الاتصالات البرقية القريبة على الجبهة، التي لم تكن بالضرورة مشفرة على الدوام، بنتائج قيمة جدا. وكان رصد الشرطة الميدانية السوفياتية، المتحمسة كثيراً لعملها، مغريا وناجعا بصورة دائمة... إن ما أنجزه معاوني لم يكن إذن أعمالا سحرية محاطة بأسرار غامضة، بل

(1) جيهلن: مرجع سابق، ص 60.

مقولات صحيحة عن وضع العدو نواياه تمكنوا من الحصول عليها بالاجتهاد، والدقة، والمعرفة المتخصصة، والسرعة». استمع الألمان، من خلال استطلاعهم القريب المنهجي، إلى معلومات كثيرة عن العدو، كانت تخضع لسرية شديدة تجعل من المحال وصول أي جاسوس إليها. وقد ظهر أن أجهزة اللاسلكي ناقل جيد لهذه الخيانة الطوعية، ذلك أن رغبة الروس في الكلام دفعتهم إلى استخدام وسيلة الاتصال هذه لأغراض الخدمة من جهة، وللأحاديث الشخصية من جهة أخرى. كان الألمان يستمعون إلى الشتائم فيعرفون مزاج القوات، والوضع الشخصي ومزاج آمري الوحدات، فيعلمون أين يواجه إيفان المشكلات. إن مشكلة قوات الاستطلاع الألماني لم تكن نقص معلومات، بل كانت وفرتها والتعامل مع الكم الهائل منها، الذي كان يفرض مستلزمات رفيعة على المترجمين أيضاً، وهي مشكلة ما كان بالإمكان التغلب عليها، لو لم يوجد في فرق ألمانية كثيرة روس راغبون في المساعدة، سدوا هذه الثغرة، وكانوا يسمون الهيفيز، أسر الألمان معظمهم سنة 1941، أو مكنوا هم الألمان من أسرهم، ثم تم دمجهم في أقسام الإمداد والتموين، وتحولوا، مع شيء من المعاملة الودية، إلى مساعدين مخلصين لوحداتهم. لقد تعلم عدد غير قليل منهم الألمانية بسرعة، صاروا فيما بعد مترجمي الاستطلاع اللاسلكي على قطارات التنصت. كتب ألبرت براون، آخر رئيس اتصالات في استخبارات القوات المسلحة وخليفة فيلجيبل، وكان في هذا الوقت قائد الفرقة 129 مشاة على الجبهة الشرقية، في تقرير عن منطقة رشيف لدى مجموعة جيش الوسط ما تؤكده تجارب عشرات قادة الفرق الآخرين[1]:

«أتت وسيلة استطلاع جديدة مخصصة للاستطلاع القتالي بنتائج رائعة.

(1) البرت بروان: جندي في قوات الإشارة والاستخبارات، ص 188.

كان الروس قد تلقوا عبر معونات «الإعارة والتأجير» الأميركية عددا كبيراً من أجهزة التخاطب اللاسلكية، استخدموها بطريقة تخلو إلى أبعد حد من الحذر، فمكنتنا أخبارهم، وأوامرهم، ومسامراتهم اللاسلكية المفتوحة، التي تمت قربنا مباشرة، من الحصول على معرفة فريدة في بابها وموثوقة، ليس فقط عن الوضع الذي يجب أن يوجه نيراننا الخاصة، بل كذلك عن نواياهم، التي أمكن اعتراضها بتدابير مضادة سريعة.

كان هناك مستقبلان موجهان نحو الترددات الروسية المعروفة، يديرهما لاسلكيون من شعبة المعلومات، يساعدهم مترجمون طوعيون راغبون في المساعدة. وقد كان ضابط شعبة الأركان الثالثة، الملازم أول بيرنيوس، يرفع صوته ليبلغني بالألمانية ما يقوله الروس في أحاديثهم، التي كانت غالباً ما تحول عند وصولها إلى نقطة من الموقع إلى نيران مركزة يطلقها فوج المدفعية، الذي كان قائده العقيد فوستنهاجن يقف إلى جانبي. وقد استمعنا في معظم الأحيان إلى أحاديث حول أهداف هجوم وتقدم عسكري واستطعنا اعتراض طريقها». هكذا نجحنا بصورة متكررة في شل التفوق السوفياتي.

كان وضع الجبهة الشرقية يشبه منذ سنة 1942 وضع الفرقة 129، فوحدات استطلاعها الاستخباري القريب كانت تعرف دوماً نوايا الطرف المقابل. طبيعي أن هذا القائد التكتيكي أو ذاك كان يعجز عن استغلال الفرص المتاحة، التي يتقن الإفادة منها القادة الميالون إلى اتخاذ القرارات، لكن المتنصتين على اللاسلكي أنفسهم كانوا متحمسين أشد الحماسة لعملهم، وقد برعوا في التنصت إلى العدو وتزايدت نجاحاتهم، حتى إنهم كانوا يبلغون غالباً الجبهة المهددة بنمط التغطية النارية الملائمة، التي تحتاج إليها في وضعها الحرج.

2

لم يكن الأمر هكذا في سنوات الحرب الأولى. وقد أثبتت الحرب أنها تختصر الوقت وتسرع التطور في هذا المجال أيضاً. يقول تقرير لم ينشر بعد عن الاستطلاع القريب[1]: «لعبت ضربات الحظ، التي حققتها قطارات الاستطلاع الاستخباري، التابعة لشعبة استخبارات الفرقة، دورا ثانويا تماماً على مستوى الفرقة في بداية الحرب. لكن الوضع تغير بصورة جذرية منذ سنة 1943 على وجه التقريب، وأخذ استطلاع الفرقة الاستخباري يقدم إسهامات مهمة عن العدو، وشرع ضابط شعبة الأركان الثالثة يتلقى يوميا مواد مثيرة للاهتمام من قسم تقويم التشفير في كتيبة الاستطلاع القريب التابعة للفرقة. إلى هذا، أتت التعميمات البرقية الدورية بنتائج مهمة في إيطاليا والغرب، إلى جانب ما أسسته معظم الفرق المقاتلة على الجبهة من مجموعات استطلاع استخباري قريب، سرعان ما تأكد أنه لا يمكن الاستغناء عنها. لقد جعل هذا كله قيادة المعارك سهلة بدرجة لم تكن معروفة من قبل، علما بأن نتائج عمل مجموعات الاستطلاع كانت محدودة بالضرورة في حرب المواقع، حيث كان العدو يستطيع استخدام اتصالاته الشخصية والبرقية البعيدة، والمحافظة على الانضباط اللاسلكي». ينطبق هذا على الغرب قبل فترة سنة 1944 أساسا، التي كانت فترة تعلم وتدريب أيضاً بالنسبة إلى مجموعات الاستطلاع الاستخباري، استغلتها للتعرف إلى تدابير العدو البرقية، ولإتقان التنصت، ولتدريب التنظيم الصغير ومترجميه. في هذه الفترة، تم إنجاز عمل مجموعاتي كثير في صمت تام، لا زال تاريخ الحرب يجهله إلى اليوم. كما كان من الأهمية بمكان على الدوام إقامة تعاون وثيق مع الأركان، وكسب تفهم القادة وضباط الأركان العامة صعودا إلى القادة في

(1) مخطوط في الأرشيف الخاص بالمؤلف.

المراكز العليا والرؤساء، مع وجود تفاوت أكيد في تصرفات هؤلاء، يجعل هذا نزّاعا إلى الانفتاح أكثر من ذاك، بحسب التجارب الشخصية ومهارة قادة الاستطلاع الاستخباري وصلاتهم. وللحق، فإن رؤساء الأركان لم يمتلكوا جميعهم تفهم العماد هايدر، الذي بعث هتلر به «إلى الصحراء» في شهر أيلول/ سبتمبر من سنة 1942». يعبر تقرير مختصر عن تجارب استطلاع الألمان اللاسلكي في روسيا على النحو الآتي: «إن اتساع البلاد، والنقص في طرقها الثابتة، وضخامة ميادين التحركات وعمليات الإمداد من جهة، والنقص في خطوط الهاتف والهواتف من جهة أخرى، فضلا عن النقص في أجهزة وخطوط الهاتف لدى الجيش الأحمر، أجبر الروس على استخدام اللاسلكي خلال الحرب بدرجة فاقت مثيلتها في الدول الأوروبية المصنعة. يفسر هذا، لماذا تركز نقطة ثقل العمل الاستخباري الألماني، خلال عامي الحرب الأوليين: 1941 و1942، على الاستطلاع عن بعد، الذي عاد على القيادة الألمانية بنتائج مهمة ومعارف قيمة عن العدو، رغم الصعوبات الجمة التي واجهته، قبل أن يتم الحصول منذ سنة 1942 على كتلة أخرى من المعلومات بواسطة الاستطلاع اللاسلكي القتالي.

كان الروس يعرفون هذا، بطبيعة الحال، وكانت معلومات كثيرة عنه تصل إليهم. وتم الاستماع إلى محادثات برقية كثيرة، تبادل طرفاها تحذير بعضهما بعضا، أو أنهياها بالإشارة إلى ضرورة الحفاظ على السرية والتقيد بها. والحقيقة، أنه كانت لدى الجنرال الأعظم ستالين نفسه خبرة خاصة تتعلق بنواقص النظام البرقي العسكري السوفياتي، حصل عليها حين كان مفوضا حربيا لدى جيش الفرسان بوديوني. ويقال إنه هو الذي حرض على تحسينه وطالب بتطبيق انضباط صارم فيه، وأن تأسيس أكاديمة تقنية للاسلكي في الاتحاد السوفياتي يرجع إلى مبادرته ومطالبة بيريسبكين. غيَّر الروس مرتين خلال الحرب نظامهم البرقي، فجعلوا عمل الاستطلاع الاستخباري

الألماني شديد الصعوبة. كانت المرة الأولى في الأول من نيسان/أبريل سنة 1942، لأن فاراً من وحدة تنصت ألمانية أبلغهم على الأرجح عن نجاحات الاستطلاع الألماني. أما محاولة التغيير والتصعيب الثانية فارتبطت بكارثة ستالينجراد، التي غنم السوفيات خلالها تجهيزات تنصت ألمانية. منذ ذلك الوقت، تكاثرت عندهم الأوامر والنواهي والتهديدات بأقسى العقوبات. ولكن ماذا يستطيع هذا كله أن يغير، إذا كانت تنظيمات كثيرة وراء الجبهة لا تتقيد بالانضباط اللاسلكي، وكان وضع وحدات الجيش، التي وزعت على نقاط الثقل الحربية، شبيها بذلك. إن توزيع هذه الوحدات على مساحات واسعة، كان يجبرها على الإفراط في استخدام اللاسلكي. وبالنظر إلى أنها لم تكن تستعمل المفاتيح صعبة الحل، اعتمدتها دوائر قيادتها العليا، بل استخدمت مفاتيح وحدات دنيا سهلة الحل، فقد أفشى عملها بأسرار كثيرة. وللعلم، حصلت شبكات المدفعية وراجمات القنابل، التابعة للقيادة العليا، على معلومات مهمة حصلت عليها من خلال الصور الشبكية وعمليات الرصد والسبر، التي حددت بواسطتها عدد الجيوش والفرق، ومجالات استخدامها وحدودها. كما عرف القوم من المصدر ذاته، حين كانت وحدات كبيرة تضاف إلى ما هو موجود من قوات. وحصل الاستطلاع البرقي بطريقة أخرى على معلومات، مثلما حدث مثلا لدى مجموعة جيش الجنوب، التي حصلت على معلومات مهمة من ضابط استخبارات روسي كبير أسره الألمان. فقد أجرى «زميله» الألماني معه محادثة متخصصة في أجواء ودية، كأنهما كانا في مناورة مشتركة. سأل الألماني عن سبب قيام الجيش الأحمر بإجراء اتصالات برقية كثيرة، فأكد الزميل من الجانب الآخر ما كان الألمان يعتقدونه دوما، وهو أن الروس يفتقرون إلى عدد كاف من الكوابل الهاتفية، والهواتف الميدانية والتوصيلات البريدية، وأن السبب في النقص يرجع إلى اتساع البلاد وضخامتها.

بفضل هذه المحادثة، تمت منذ سنة 1942 معرفة توقيت كل هجوم روسي كبير في الوقت المناسب. فقد كانت وحدات الحماية من الحزم النارية تجري اتصالات برقية مكثفة على الدوام، وكان وصولها إلى الجبهة يعتبر دليلا قاطعا على قرب وقوع هجوم كبير. بينما كان وصول وحدات مهندسي الجيش يشير إلى هجمات مدرعة مرتقبة، يبني هؤلاء لها الطرق والجسور، ويفتحون قبل كل شيء الممرات في حقول الألغام.

إليكم بعض الأمثلة العملية: في تشرين الأول/أكتوبر والثاني/نوفمبر من سنة 1941 تمت ملاحظة شبكة ظاهرة حول فلاديمير على بعد مئتي كيلومتر إلى الشرق من موسكو، وشبكة أخرى في شرق روستوف، علم من اتصالاتهما البرقية أن هناك تشكيلات مقاتلة كثيرة جديدة تشكل وتدرب، قدرت الشبكة الأولى منهما بأربعة جيوش، والثانية بعشر فرق. وقد أكد الهجوم الشتوي، الذي شنته الوحدات الجديدة في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر وبداية كانون الأول/ديسمبر من سنة 1941 على روستوف وفي منطقة موسكو، صحة معلومات استطلاع الألمان اللاسلكي، التي استندت إليها تقديرات شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» حول نوايا العدو.

قبل ستالينغراد، استنتج الاستطلاع البرقي الألماني إشارات أولى تدل على قرب وقوع الهجوم، من اتصالات عبّارات نهر الفولغا، التي كانت تحتاج إلى ست ساعات من أجل عبور ليلي للنهر المتجمد، فتشير المعلومات الصادرة عنها إلى الإمدادات الضخمة، التي كانت تشير بدورها إلى قرب وقوع هجوم كبير. إلى هذا، كان الاستطلاع الألماني يستمع إلى معلومات عن القوة اليومية للوحدات المستخدمة في الجبهة، ويستنتج، عندئذ، أن الإمدادات الكبيرة لا يمكن أن تكون مخصصة لفرق المواقع التي أنهكها القتال، بل للوحدات التي وصلت حديثا أو كانت في سبيلها

إلى بلوغ الجبهة. من جانبها، كانت المعلومات عن النقل بالقطارات غنية إلى أبعد حد بالمعلومات والدلالات. في بعض الحالات، كان يمكن متابعة الإمدادات المرسلة من داخل المجال الروسي، الذي تشكلت فيه الوحدات الجديدة، وصولا إلى الجبهة، حيث كانت تعرف أيضاً أماكن إيوائها.

نجح الاستطلاع اللاسلكي على الجبهة الشرقية في التحول إلى مصدر المعلومات الرئيس، فقد نجح منذ سنة 1943 في تقديم معلومات سرية، سريعة وموثوقة، إلى مختلف مراتب القيادة. وزاد من سهولة عمله كم الشبكات والرسائل البرقية المعادية الكبير، حيث كانت يستطيع أن يرصد أكثر من 300 موقع لاسلكي على جبهة لا يتجاوز عرضها 40 كيلومترا، قبل وقوع أي هجوم كبير.

3

كيف كان الوضع على مسارح الحرب الأخرى؟. كان الاستطلاع اللاسلكي يجري هناك أيضاً بطريقة مشابهة، وإن في ظروف أكثر صعوبة ونتائج أقل بكثير. ومهما يكن من أمر، فقد شهدت الحرب عددا من الحوادث، منها على سبيل المثال أزمة واجهها الاستطلاع البرقي في إيطاليا في آذار/مارس من سنة 1944، ترجع إلى تهور مراسل حربي، وإلى نقص الرقابة. خلال القتال في صقلية، ظهرت في الصحافة الألمانية مقالة اكدت الاستطلاع الاستخباري وأكدت نجاحاته، بثتها الإذاعة في ألمانيا. بعد أيام، لاحظ الاستطلاع اللاسلكي الألماني أن شيئاً سلبيا يحدث، أدى إلى نضوب معظم مصادره الموثوقة، ثم علم أن البث كان بمثابة تحذير للعدو، الذي انتقل إلى استعمال مفاتيح جديدة صعبة، جعلت من الصعب معرفة حتى تنظيم القوات من شبكات الاتصالات.

لكن المصادفة السعيدة ساعدت هنا مرات كثيرة، فقد تم مثلا معرفة موعد الهجوم ضد الجبهة الدفاعية في منطقة نابولي، بسبب صمت لاسلكي مريب ساد لدى الجانب المقابل، التقطت وحدة إمداد صغيرة أثناءه رسالة لاسلكية قصيرة حول تسليم المنطقة في يوم محدد، فأصاخ ضابط اللاسلكي الألماني المسؤول السمع، لعلمه أن البريطانيين كانوا يحرصون قبل شن هجوم على تسليم المنطقة إلى القوات المهاجمة. وقد تم تحذير المدافعين، الذين اتخذوا تدابير مناسبة. أعقبت ذلك مصادفات سعيدة أخرى، فقد سمع الألمان في شبكة لم تلتقط من قبل جملة تقول: «إن الإيطاليين لا يجوز أن يستخدموا إلا كندَّل (كخدم) وتجار بطاقات تذكارية». ذلك كان طبعا رسالة برقية لا معنى لها، إلا أنها أكدت وجود الوحدة الأميركية في المكان، الذي كان المرء يظن أنها موجودة فيه. كما تم أيضاً العلم بوجود فرقة كندية من خلال رسالة برقية بعث بها إلى زميل له كندي ناطق بالفرنسية عن مغامراته العاطفية في نابولي. هذا الجندي لم يكن يعلم أنه يرتكب جريمة خيانة الأسرار بالإهمال. كان الكنديون والبولونيون فرقا هجومية معروفة، يمثل ظهورهم على الجبهة وانتشارهم في قطاعات ضيقة منها، علامات أكيدة على قرب وقوع هجوم في منطقة معينة. إليكم مثالا آخر على دور المصادفة في الاستطلاع الاستخباري عبر اللاسلكي. انتقل مركز ثقل الاتصالات المعادية مطلع سنة 1944 من البحر المتوسط إلى إنجلترا، ورافق ذلك اختفاء وحدات بريطانية وأميركية على درجة رفيعة من التأهيل، كان يمكن ملاحظتها إلى ذلك الوقت في الجنوب، منها مثلا فرقة إنزال جوي أميركية كانت ترابط في جنوب إيطاليا، ثم انعدمت أي إشارة لاسلكية إلى مكان وجودها. لكن المصادفة الشهيرة مدت يدها بالعون بعد نحو أسابيع ثلاثة، فقد كانت شبكة معينة في إنجلترا، لم يكن قد تم قبل ذاك التعرف إليها، تبحث عن جندي معين، لسبب خاص إلى أبعد حد: هو أن آنسة رفعت دعوى قضائية ضده

في الولايات المتحدة، تزعم فيها أنه أب وليدها، وكان البحث جار عنه لاستجوابه. بما أنهم كانوا يذكرون رقم هذا الجندي في وحدته، علم الألمان أنه ينتمي إلى الوحدة المفقودة. طبيعي أن هذا النبأ نقل دون إبطاء إلى مركز الاستطلاع الاستخباري القيادي لدى رئيس استخبارات الجيش في أركان الجيش العامة.

بيد أن الغرائب أضيفت الآن إلى المهازل، لأن هذا المركز القيادي، الذي كان يقوم بتقويم نهائي مركزي، استخلص من المستندات المتوفرة أن فرقة الإبرار الجوي نقلت إلى إنجلترا، الامر الذي لم تشكك أركان قيادة القوات المسلحة فيه، وإنما رفضته جملة وتفصيلا، بحجة أن الفرقة لا يمكن أن تكون قد نقلت بغير الغواصات، وإلا لكان لاحظ انتقالها أحد. رغم رفض الأركان، أصر مركز القيادة على رأيه، ثم تأكد فعلا وجود الفرقة في إنجلترا، بل إنها كانت من الوحدات الأولى، التي نزلت يوم 6 حزيران/ يونيو على ساحل النورماندي، بواسطة الإبرار الجوي، مما يفسر فشل التدابير الدفاعية، التي كانت قد اتخذت في جبل طارق[67].

ثمة حالة أخرى يجب ذكرها، لم يصدق المرء خلالها الاستطلاع البرقي الألماني، وترتبت عليها نتائج وخيمة هذه المرة أيضاً. من المعروف أن القيادة العليا الألمانية كانت تعتقد صيف سنة 1944 بحتمية حدوث إنزال حليف ثان على ضفة القنال في فرنسا. بما ان توزيع فرق الحلفاء في إنجلترا كان يبدو وكأنه يشير إلى ذلك، فقد ترددت في نقل الاحتياطي المتوفر، وخاصة الوحدات الكبيرة المتحركة للجيش الخامس عشر في شمال أفريقيا، وزجه على جبهة النورماندي، علما بأن النقل كان صعبا جدا، بالنظر إلى سيطرة الأميركيين الجوية المطلقة، ولأن جسور السين المؤدية إلى باريس كانت قد دمرت جميعها. ماذا كان الصواب في ظرف كهذا؟. لقد طلب من

رئيس مركز قيادة الاستطلاع البرقي غرب أن يأخذ موقفا من هذا السؤال ويعلل تقويمه للوضع، فأجاب أن الألمان يعرفون عدد الوحدات المستخدمة في جبهة النورماندي، ويعرفون عدد الوحدات الموجودة في إنجلترا أيضاً. بما أن معظم هذه الوحدات منخرط في القتال، بينما تمس الحاجة إلى ما تبقى منها، لتعزيز جبهة الغزو، فإنه لن يكون هناك، حسب تقديره، إنزال حليف آخر. هذا ما توصل إليه أيضاً تقويم أجراه رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية غرب»، لكن أركان القوات المسلحة كان لها رأي آخر. حسب ملاحظات الجنرال فارليمونت (في المقر الرئيس للقوات المسلحة الألمانية بين 1939 ـ 1945)، شاع اعتقاد راسخ بوجود إنزال ثان على ضفة القنال. ذلك كان رأي أيضاً المارشالين رونشتيدت، القائد الأعلى للغرب، وروميل، القائد الأعلى لمجموعة الجيش (ب)، الذي اعتقد المرء أول الأمر أن إنزال النورماندي لم يكن غير مناورة تضليلية.

ثمة حالة واحدة فقط فرضت نتائج الاستطلاع اللاسلكي نفسها فيها: فقد ألقيت في ليالي الغزو الأولى دمى على البروتانيه، أريد بها صرف الأنظار عن المظليين. منذ ذلك الوقت، اعتقد هتلر بإمكانية غزو ثان هناك. لكن الاستطلاع البرقي كان يستطيع البرهنة على خلو المجال المعني من أي اتصالات لاسلكية، ويقول إن الإنزال غير محتمل في هذه المقاطعة، وهو قول كانت تشاركه فيه هيئة أركان القوات المسلحة.

في هذه الأثناء، أنجزت مجموعات الاستطلاع البرقي القريب في فرق جبهة النورماندي عملا مجدياً، أسوق عليه المثال الآتي: في مطلع آب/ أغسطس 1944 هاجمت الفرقة المدرعة الخامسة الإنجليزية قطاع فرقة المشاة الألمانية 277 غربي توري ـ هاركورت. وقد قدمت مجموعات الاستطلاع البرقي القريب خدمات ممتازة إبان المعركة الدفاعية، فالتقطت الأخبار البرقية

للاستطلاع الجوي الإنجليزي حول التحركات الألمانية وانتشارهم الموقعي في مختلف الأماكن، ومكنت الفرقة من الإفلات. استطاعت المجموعات أن تستمع كذلك إلى ما كانت تقوله أطقم الدبابات الإنجليزية في أحاديثهم اللاسلكية حول مواقع انتشار المهاجمين ونتائج استطلاع وأهداف الهجوم، فصار ممكنا تعريض مواقع الانتشار المعادي، التي تم التعرف إليها، إلى ضربات نارية مركزة. وقد سمع جنود الاستطلاع الألمان الإنجليز وهم يقولون: «لقد تعرف فريتز (لقب الألماني في أوروبا) علينا، لذلك لن نهاجم اليوم، بل سنعود إلى المواقع التي انطلقنا منها». لم يتمكن الاستطلاع الجوي الألماني من اختراق جبهة الغزو سنة 1944، لأنه كانت للحلفاء سيطرة جوية مطلقة. لكن استطلاع الألمان اللاسلكي نشط هنا، وكان يستطيع التمييز منذ وقت طويل بين الكنديين والبريطانيين والأميركيين، وتحديد قطاعات هجومهم. كما كشف في الوقت المناسب نيتهم القيام باختراق قرب أفرانش، وكذلك عملية التطويق، التي أدت إلى ضرب الحصار على الألمان في منطقة فاليز. إلى ذلك، جمع الاستطلاع البري تجارب ثمينة في الغرب، جعلت الوحدات القتالية المجربة أشد حذرا بكثير في استخدام اللاسلكي من الوحدات الجديدة. لم يلتزم الأميركيون بالانضباط البرقي قدر التزام الإنجليز به، فكان من الممكن التقاط اتصالاتهم بسهولة أكبر. كما أن وحداتهم بعثت في مرحلة الغزو الأولى بنصوص برقية صريحة كثيرة. وكان جيش باتون أكثر جيوشهم على الجبهة الغربية انكشافا، أما أكثرها تغطية فكان الجيش السابع، الذي نزل في جنوب فرنسا وتقدم نحو الشمال، وكان قد قاتل في أفريقيا وصقلية وجنوب إيطاليا، وحصل على تجارب مع الاستطلاع الاستخباري الألماني.

من الضروري قول كلمة أخرى حول جمع المعلومات الاستخبارية خلال هجوم الأردين الألماني. فقد تقيد الألمان بصمت لاسلكي مطلق

أخفى نواياهم الهجومية. كان الوقت آنذاك شتاء، وكان الشتاء قاسيا عرف هطلاً ثلجياً متكرراً وسماء مغطاة بالغيوم، فلم يستطع أحد التعرف من الجو على مواقع الانتشار الألماني، سواء منها مواقع الجيش الخامس المدرع أو مواقع جيش الـ إس.إس المدرع السادس. من جهة أخرى، كان قادة القوات الألمانية يعرفون أن انتشار العدو قليل في القطاعات، التي كان عليهم مهاجمتها. لقد أحس الأميركيون بالأمان، فلم يتخذوا تدابير وقائية خاصة، مع أنه لم يكن لديهم احتياطي عملياتي هنا. كشف استطلاع الألمان اللاسلكي هذا كله، وحين حدث الهجوم الألماني المفاجئ، بدا أول الأمر كلكمة غير متوقعة أصابت وجه الأميركيين. هذا ما تؤكده رسائل برقية كثيرة تحدثت يوم 16 كانون الأول/ديسمبر عن خسائر فادحة وتراجع اضطراري، ونداءات الاستغاثة وطلب العون التي لم تتوقف. لقد بدا الاختراق الألماني وكأنه نجح، بيد أنهم التقطوا شبكة لاسلكي الشرطة العسكرية الأميركية، التي كانت تستخدم شيفرة سهلة الحل تخالطها نصوص صريحة كثيرة، علموا منها أن التعزيزات تتدفق من جميع الجهات، وعرفوا أن الغلبة المطلقة ستكون خلال أيام للأميركيين. وقد كان ضربا من الرضا المأسوي عن الذات بالنسبة إلى الاستطلاع البرقي الألماني، أن ينهي تقريراً حول النهاية في الغرب على النحو الآتي: إن التطورعلى جبهة الغرب، الذي تواصل حتى نهاية الحرب، لم يعد يسبب أي صعوبات بالنسبة إلى الاستطلاع الاستخباري، الذي أعلم القيادة دوماً وفي الوقت المناسب بحشود العدو، على رأس جسر ريماجن على سبيل المثال، وباتجاهات هجمات وحداته المدرعة، فكانت تعرف دوماً في أي اتجاه ينوي الجنرال باتون شن هجماته، وأي فرق ستكون بإمرته خلالها، بعد أن تخلى المهاجم تماماً عن الانضباط اللاسلكي، بسبب إحساسه بتفوقه المتعاظم، وأعلن نواياه بوضوح في برقياته. كانت القيادة الألمانية تعرف بدقة ما يجري، وبقيت معلومات

الاستطلاع مهمة بالنسبة إلى المارشال كيسلرنج، ومفيدة بالنسبة إلى شعبة القيادة. بل إنها كانت في الأشهر الأخيرة من الحرب المصدر الوحيد تقريباً لأخبار العدو، بعد أن توقف الاستطلاع الجوي، ولم يعد هنالك أسرى يقبض عليهم، أو وثائق تغنم، أو جاسوس ألماني واحد وراء خطوط الجبهة المعادية. لقد حمل استطلاع اللاسلكي العبء الكامل للعمل الاستخباري السري، وظل فاعلا حتى النهاية لدى معظم الجيوش الألمانية. طبيعي أن معارفه، التي كانت تقدم صورة واضحة عن العدو، بقيت أكاديمية صرفا. وفي حين كان يحسن بالمرء الاستماع إليها في السابق، فإن الوقت لذلك كان قد تأخر الآن كثيراً.

في الختام، تؤكد المستندات المتوفرة أن وحدات الاستطلاع الاستخباري في الجيش الألماني كان لها القوة التالية حتى نهاية الحرب تقريباً:

جنرال استطلاع استخباري مزود بمركز قيادي	250
6 قادة للاستطلاع الاستخباري مع مراكز تقويم	1200
10 أركان شعب استطلاع استخباري	500
5 مراكز استطلاع استخباري ثابتة	750
10 كتائب استطلاع استخباري عن بعد	3500
15 كتيبة استطلاع استخباري عن قرب	4500
كادر جيش لدى وحدات وقائية وشعبة التشفير	1300
المجموع	12000

الفصل الرابع

مكافحة اللاسلكي ـ العبء الثقيل

1

عرفت القوات المسلحة الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية استطلاعا ناجحا باللاسلكي، وكذلك مكافحة لاسلكية متعددة الجوانب، حققت بدورها إنجازات تستحق الاهتمام، زاد من قيمتها أنها تمت في مواجهة أعداء نشطاء إلى أبعد حد، متفوقين تفوقا عدديا كبيراً عليها. هذه الإنجازات في الحرب الصامتة لأجهزة الاستخبارات السرية ليست معروفة بالقدر اللائق بها، ولم تثمن بعد من منظور تاريخ الحرب.

ثمة أسباب جلية ومن طبيعة مزدوجة لذلك: من جهة، يكرس تاريخ الحرب للمعارك والحملات، ويترك الاستخبارات في الظل. وتهتم وسائل الإعلام، من جهة أخرى، بقصص الجاسوسية «القوية»، بـ«جواسيسها الأفذاذ» ومغامراتهم. بينما تفتقر حرب الأثير الصامتة إلى الكثير مما تستطيع تقديمه هنا، مع أن تاريخ مكافحة اللاسلكي كان مليئا بالأحداث المأسوية خلال الحرب العالمية الثانية.

ثمة حدثان أطلقا مكافحة اللاسلكي، حظي كلاهما باهتمام عالمي واسع. أما أولهما فكان ما سمي «الروته كابيله (الجوقة الحمراء)، وهي شبكة متشعبة من عملاء السوفيات والمتعاطفين معهم، غطت المناطق الغربية

المحتلة، ونشطت أيضاً في منطقة الرايش. وكانت شعبة مكافحة اللاسلكي هي التي كشفت محطتها البرقية، وتتبعتها وحددت موقعها، بعد أن كلفوها في 14 كانون الأول/ديسمبر في الكشف عن مبرق عميل في بروكسل، وتحفظوا على مواد برقية كثيرة. وقد أعقب هذا أشهر من البحث عن كتب مفاتيح الشيفرة، إلى أن عثر عليها عبر صدفة سعيدة، وتم فك شيفرات الرسائل البرقية المتوفرة، وقراءة تلك التي كانت قيد التداول. نتيجة ذلك، كشفت مجموعة: خورو في برلين، وكان يقودها، كما هو معروف، هاري شولتسه - بويزن، وإرفيد هارناك وآدام كوخهوف. قد يأسف المرء لاعتبارات إنسانية على ضحايا أيديولوجية هؤلاء، لكنه لا يستطيع إنكار حقيقة أنهم كانوا يتجسسون لمصلحة الاتحاد السوفياتي وخانوا بلدهم.

بينما كانت الثانية، التي حظيت بشهرة عالمية واسعة، هي حالة ما سمي «الثلاثة الحمر»، أي أجهزة إرسال العملاء السوفيات الثلاثة، الذين كانوا يبعثون ببرقياتهم من سويسرا إلى موسكو، ويتلقون تعليماتهم من «المدير». هؤلاء أيضاً، كشفتهم شعبة مكافحة اللاسلكي، من خلال سبر عن بعد حدد موقعهم. إن القضاء عليهم لم يكن ممكنا بطبيعة الحال[68]، لكنه أمكن التقاط قسم كبير من الرسائل البرقية بين سويسرا وموسكو، وتم لاحقا فك رموزها. غير أن 500 رسالة منها بقيت محفوظة أو عرفت مؤخرا، بفضل مذكرات ساندور رادو، الذي كان آنذاك رئيس المقر السوفياتي في سويسرا. إلى هذا، مهد العمل الاستطلاعي لمكافحة اللاسلكي الدرب أمام لعبة إنجلترا، التي أخرجها في هولندا الرائد جيسكه ورئيس المباحث شرايدر.

بوجه عام، أفلحت مكافحة اللاسلكي في تحديد مواقع عملاء نشطوا لحساب السوفيات ضمن منطقة الحرب الغربية، وأمكن القضاء عليهم، حتى

بدا نهاية سنة 1942 وكأنه تم كسب حرب الأثير ضد الجيش الأحمر في غرب ووسط أوروبا ووسطها.

كانت مكافحة اللاسلكي ناجحة أول الأمر في الشرق، وحققت نجاحا مماثلاً على وجه التقريب في الغرب أيضاً، حيث يسجل في رصيدها تحديد موقع منظمة العملاء «أركو» والقضاء عليها. إلى ذلك، تمكنت من تحقيق نجاحات أخرى، لكنها عجزت منذ سنة 1943 عن السيطرة على كتلة عملاء السوفيات اللاسلكيين، مثلما عجزت بصورة متزايدة عن التصدي لعملاء الحلفاء في فرنسا، الذين تكاثر عددهم باضطراد، وإن كانت قد حققت هنا نجاحها الكبير الأخير، باعتقالها من سمي الرئيس الصغير «للروته كابيله» في مارسيليا، الذي كان يعمل تحت اسم حربي هو «كنت»، فاستمالته وجعلته يعمل لمصلحتها.

تم العثور على مواد سرية مهمة، في حالتي «الروته كابيله» و«الثلاثة الحمر». ويقدم النص الصريح للرسائل البرقية الخمسمئة، التي أرسلتها المنظمة أو تلقتها، وتم فك رموزها[1]، معلومات مهمة حول ما عرفته موسكو خلال الحرب، وما أرادت معرفته. كما كشفت الرسائل طرقا معينة تظهر نمط عملها الاستخباري السري بين 1941 و 1943. وقد أخفى موظف في مكافحة البرق هو ف. فليك، الرسائل بطريقة غير شرعية قرب نهاية الحرب، لغرض واضح هو المتاجرة بها. لكن تحقيقين روائيين كتبا مطلع الخمسينيات من القرن الماضي في سويسرا عن القسم الأكثر أهمية منها، ونشرا باسم فليك، جعلا لهذا الاستغلال الفردي نتيجة إيجابية، هي معرفة الرأي العام بوجودها، وإلا لكانت اختفت حتما في أراشيف سرية ما.

(1) يوجد نسخ منها في أرشيف المؤلف الخاص.

2

بالأصل، لم يكن لدى قوات ألمانيا المسلحة أي جهاز متخصص بمكافحة اللاسلكي. لم يكن هناك أيضاً ضرورة لجهاز كهذا، لأن مراقبة الاتصالات اللاسلكية في منطقة الرايش كانت من اختصاص شرطة حفظ النظام، المكلفة كذلك بمنح التراخيص لهواة اللاسلكي وبتسجيل أسمائهم في قيودها. وكان هؤلاء منظمين قبل الحرب العالمية الثانية في نادي هواة اللاسلكي الألمان، الذي ترأسه الجنرال خارج الخدمة ساكس، القائد السابق لمدرسة استخبارات الجيش[69]. وفي حين أعاقت تعليمات البيروقراطية تطور اتصالات الهواة اللاسلكية، كان الأميركيون عمليين أكثر، لذلك كان لديهم عند نشوب الحرب كادر مدرب أكبر بكثير من الكادر الألماني، فشل الألمان في امتلاك ما يماثله، بسبب نزعتهم إلى احتباس كل شيء في قالب جامد، أو بكلام أوضح، بسبب البيروقراطية الخرقاء لإدارات القوات المسلحة. لذلك، كان محالا خلال الحرب تغطية الحاجة المتزايدة إلى مبرقين وخبراء لاسلكي من صفوف هواة اللاسلكي. مع ذلك، حقق استطلاع وحققت شعبة مكافحة اللاسلكي المعادي نجاحات كبيرة، تفسرها إلى حد كبير النوعية المهنية الرفيعة للكادر الأصلي، الذي مكنه تأهيله العالي وتعلقه بعمله من تحويل الهواة المجندين إلى محترفين حقيقيين، بعد فترة تدريب طويلة. مندئذ، قام عناصر الوحدة الاستخبارية جميعهم بتنظيم أجهزة الإرسال الغريبة باقتناص حماسي، بل هوسي، ولم يهنأ لهم بال قبل القضاء عليها. هذه الحماسة في اصطياد الغرباء أفادت في مكافحة اللاسلكي، هذا النمط من العمل الاستخباري، الذي صادف هوى لدى معظم الألمان فاق ذاك الذي كانوا يخصون به الجاسوسية التقليدية.

تغير الوضع بصورة جذرية في هذا المجال أيضاً، بنشوب الحرب سنة

1939، بما أن الحملات الخاطفة كانت تؤدي إلى فتوحات جديدة، ومجال السيطرة الألمانية كان يتعاظم بصورة متزايدة حتى سنة 1942. لكن قوى المقاومة المعادية تعاظمت بدورها، وتزايدت معها أجهزة الإرسال غير الشرعية. لذلك غدت مكافحة اللاسلكي ضرورية وحتمية لحماية القوات المسلحة، بدءاً من سنة 1940، وتم اختراع سلاح مكافحة الحرب في الأثير، الذي عمل بثقة أكبر، بمرور الوقت، حسب الترسيمة الآتية:

1 ـ جهاز التنصت والرصد عن بعد، الذي كان عاما أول الأمر في القطاع المعني، ثم كان يتم توجيهه نحو أغراض محددة، حين كان يتم التعرف إلى محطة ما ويعين موقعها.

2 ـ تقويم المعارف المكتسبة في ما يتعلق بمكان الاتصال ونوعه.

3 ـ استخدام ميداني قريب يحدد بدقة موقع أجهزة الإرسال غير الشرعية.

4 ـ إبطالها بمشاركة الشرطة العسكرية السرية في الميدان، أو شرطة الدولة السرية في منطقة الرايش.

5 ـ تقويم نهائي لسائر المعلومات المكتسبة وإبلاغ شعبة المكافحة، أو شعب «الجيوش الأجنبية» في القيادة العليا للجيش، بها.

كان الرأي العام يعرف هذه المهام، الملموسة في تحقيقي فليكه، اللذين يصفان الحقيقة. «أتيحت إمكانات أخرى للعب من خلال الإمساك بعملاء لاسلكيين معادين وتحويلهم إلى عملاء لنا. وقد كان لمكافحة اللاسلكي إسهامها الكبير في ذلك، الذي يمكن قراءة نجاحاته والظواهر الرائعة التي رافقته في تقارير عيانية كتبها المستشار الجنائي شرايدر (من كتاب: تلك كانت لعبة إنجلترا، الذي راجعه المؤلف) والملازم أول جيسكه

(الجواسيس يخدعون الجواسيس)، تنصب على الغرب، حيث غدت السماء أكثر شفافية، كما يقال، بعد أن تبعت الهدنة هناك الحرب وانفردت القوات المسلحة الألمانية بالسيطرة.

كان الأمر خلاف ذلك على مسرح الحرب الشرقي، حيث كانت تضج المعارك، منذ 22 حزيران/يونيو 1941، ونما عدد أجهزة إرسال العملاء والمتعاطفين من شهر لآخر، في حين كانت شعبة المكافحة تفتقر إلى قوى كافية، وحدثت منذ سنة 1943 مشكلات غير قابلة للحل. من الواضح أن تزايد عدد أجهزة إرسال العملاء والمتعاطفين يرجع إلى مبادرة العماد بيرسبكين، الذي برز كاختصاصي مميز في اللاسلكي، وضع تحت تصرف هؤلاء كل ما كان ضروريا لعملهم، لأن ستالين كان يصغي إليه ويتفهم مطالبه ويلبيها. على النقيض مما كان يحدث في الغرب، سيطر العملاء الحمر أكثر فأكثر على الجبهة الشرقية، حتى ليمكن الحديث منذ سنة 1943 عن سيطرة لاسلكية سوفياتية، وإن اقتصرت، على كل حال، على المنطقة الواقعة وراء الخطوط الألمانية.

نورد في ما يأتي تقريراً عن مثال يبين ذلك من تاريخ الحرب[1].

3

في شباط/فبراير سنة 1942، وبعد نجاح حرب شتاء سنة 1941/1942، التي تعرض فيها الجيش الألماني لأول هزيمة، قامت قيادة الجيش الأحمر بمبادرات نشطة على جميع الجبهات. في هذا السياق، نجحت الاستخبارات العسكرية السوفياتية في تجنيد ضباط بولونيين كانوا قد نجوا من كارثة كاتين

(1) نتابع هنا تقرير فليكه: عملاء يبرقون نحو موسكو. كرويسلنجن 1954، الفصل الثامن «أركو» ص 203-214[70].

أو مروا بها، أعلن اثنان منهم هما المقدم السابق ستانيسلاف أرشيفسكي والملازم السابق جوزيف ماير، عن استعدادهما للعمل كمخبرين لموسكو في المناطق البولونية الواقعة وراء خطوط الألمان، بعد تلقيهما التدريب الملائم. تلقى هذان أمراً بتأسيس شبكة من العملاء هناك، وإرسال المعلومات التي يحصلون عليها إلى موسكو باللاسلكي. وكان الإمداد الألماني بواسطة النقل بالقطارات يحظى بالأولوية في اهتمام المدير، وكذلك النقل العسكري الإجمالي بالقطار في كلا الاتجاهين. أما خط الفصل العام بين قطاعي الاستطلاع الشمالي والجنوبي فكان يقع بين وارسو وأوريل، علما بأن القطاع الجنوبي أسند إلى «أركو»، الذي يخبرنا فليكه عنه ونتابع أقواله هنا حسب معناها[1]:

انطلقت ليلة الثاني عشر من شباط/فبراير سنة 1942 من مطار ليبسك قرب موسكو ـ وهو معروف من بعض قدماء الطيارين الألمان ـ طائرة نقل روسية، عبرت الخطوط الألمانية واتجهت نحو جوميل، ثم استدارت قرب ليكوف واتجهت نحو كالفاريانبيرج، حيث انفصلت عنها مظلتان غاصتا في الظلام العميق، قبل أن تهبطا قرب حظيرة نصف متداعية، دفن الرجلان مظلتيهما قربها، وقصدا بثياب البولونيين المحليين مدينة جارفولين الصغيرة القريبة، حيث انفصلا، فواصل أرشيسفسكي سفره بالقطار إلى وارسو، بينما اتخذ ماير أوتفوسك مقراً رئيساً له، ركز جهاز إرساله في منطقة مستنقعية قريبة منه، وسرعان ما شرع يستخدمه، بما أن قطار وارسو ـ لوبلين كان يخترق الموقعين. بعد برهة قصيرة، بدأت معلومات مهمة تصل إلى مركز القيادة في موسكو. لكن شعبة مكافحة اللاسلكي لم تبق دون فعل في هذه الأثناء، ففي الرابع عشر من كانون الأول/ديسمبر، بعد بدء عملها مباشرة،

(1) فليكه، ص 208.

تمكنت كتيبة التنصت الألمانية من كشف 15 محطة إرسال لاسلكي معادية شمال خط وارسو ـ أوريل، وها هي محطة جنوبية تضاف الآن إليها.

ساعدت الظروف الخاصة «بالحكومة العامة» ـ اسم بولونيا تحت الاحتلال الألماني ـ العميلين السوفياتيين، اللذين سرعان ما وجدا مخبرين ضليعين بين موظفي ومستخدمي وعمال السكك الحديد البولونية، وضعوا أنفسهم تحت تصرف إدارة سكك حديد الرايش الألمانية، التي رحبت بهم كخبراء متخصصين، بسبب افتقارها إلى كوادر للسكك الحديد، الذي كان يتعاظم بتعاظم امتداد المناطق المحتلة نحو الشرق. كانت المساعدة البولونية ضرورية في نقاط تقاطع ومحطات تحويل القطارات، وخاصة في لوبلين، وبراغا قرب وارسو، ورادوم، وبرزميسل، ولمبرغ، وبرست ليتوفسك، ولوكوف، حيث صار عدد من العمال عملاء للروس ومخبرين متحمسين للجيش الأحمر، رغم العداء لروسيا، الذي كان شائعاً آنذاك في بولونيا، ورغم ما كانوا يظهرونه من حمية حقيقية في خدمة الألمان، «ويبدونه من اجتهاد ودأب في مواجهة مستلزمات العمل، الذي طلب الألمان منهم القيام به، بمعونة آلاتهم ودفاتر ملاحظاتهم، وأدى إلى انتشارهم الدائم على خطوط السكك الحديد». كانت الأركان العامة الروسية تريد معرفة كل شيء حول عمليات النقل الألمانية.

وقد تلقت ما كانت تريده بمعونة أرشيسيفسكي وماير ومستخدمي السكك الحديد البولونيين المتحمسين، الذين أمكن توظيفهم من جديد، لسعادة الإدارة الألمانية. وبينما كان ماير يشغل جهاز إرساله قرب أوتفوسك، كان أرشيسفسكي يكمل بناء شبكة التقاط المعلومات الخاصة به. وما حلت سنة 1942، حتى كان لديه في كل نقطة تقاطع سكك حديد، وفي كل محطة تحويل وإدارة خطوط، رجلاً أو امرأة يقدمان له تقارير حول ما يجري.

24. الجنرال كِنِث سترونغ.

25. وليام ج. دونوفان.

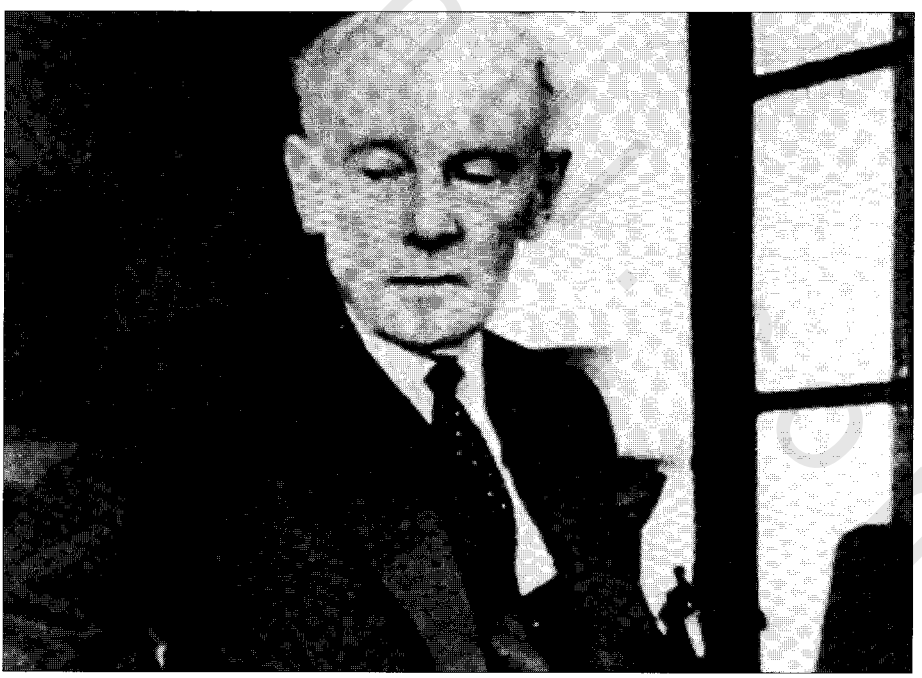

23. ستيوارد منزيس رئيس الاستخبارات السرية البريطانية من 1939 حتى 1951.

26. آلن دبليو. دلس.

28. ماكس فايبل.

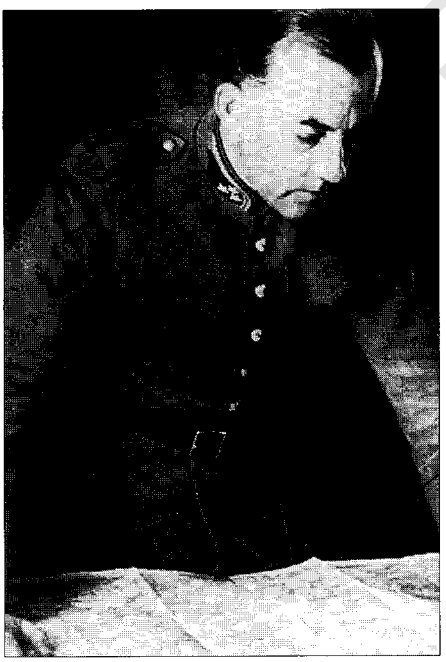

27. روجر ماسون.

obeikan.com

29. هانس هاوسمان.

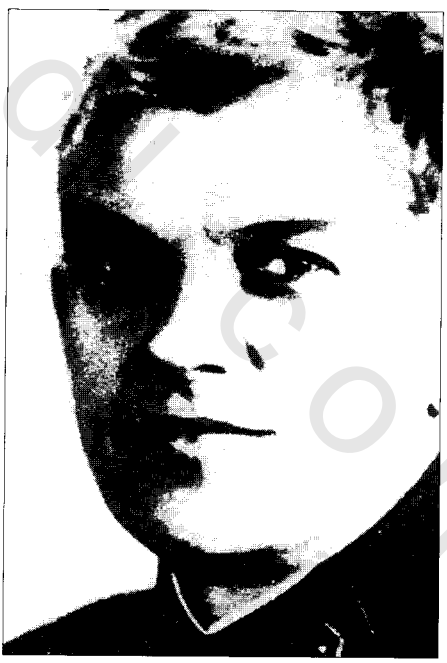

30. لافرنتخ بريجا.

31. جان برسين.

32. تشرشل في زيارة للقوات البريطانية على شاطىء القناة الانكليزية.

33. هتلر على الشاطىء الفرنسي للقناة، ربيع 1940.

بدأت عمليات النقل الألمانية تجري خلال هذه الفترة ضمن منطقة حشد خاركوف، حيث كان سينطلق هجوم كبير مطلع سنة 1942. طبيعي أن الألمان فعلوا كل ما يلزم لمنع العدو من معرفة أي شيء، فقد التزموا صمتا لاسلكيا صارما، غير انه لم يساعدهم كثيراً، لأن حركة قطارات النقل، التي كانت كثافتها تتزايد، كانت تجتاز بولونيا المحتلة، أي منطقة «الحكومة العامة»، كانت تعبر ليلا ونهارا كييف وتشيرنيجوف وكونوتوب في منطقة كريمينشوف وبولتافا وأختيركا، محملة بالقوات والدبابات والعربات والذخائر والمدافع والقواذف. ذلك أن الأمر كان يتعلق بحشد هائل ضم الجيش المدرع السادس، ومجموعة دبابات فون كلايست، والجيش السابع عشر مع وحدة سلوفاكية سريعة الحركة، والجيش الحادي عشر مع فوج فرسان وفوج جبلي رومانيين، وقد تجمعوا لشن الهجوم الكبير، الذي أريد به من جديد حسم الحرب في الشرق.

كانت الأركان العامة السوفياتية قد بدأت تعرف في هذه الأثناء بدقة وقائع هذا الحشد، بعد أن ركبت نظرة عامة شاملة من جمع الموزاييك الكثيرة، التي تكون منها، ووصلتها عن طريق مجموعة عملاء «أركو»، وأكملها الاستطلاع السوفياتي الجوي والبرقي وعلى الجبهة. عندئذ، حدثت مصادفة، فقد التقطت شعبة المكافحة الألمانية جهاز الإرسال، الذي كان يعمل جنوب بولونيا ويتصل مع موسكو، أعني جهاز «أركو». وتم بعد برهة رصده وتحديد موقعة بين غابات ومستنقعات منطقة أوتفوسك، ثم إبطاله وإلقاء القبض على قائدي العملاء: ماير وأرشيسفسكي، خلال غارة صاعقة. كانت الغنيمة ثمينة، لأن المفاجأة لم تترك لهما الوقت لإتلاف المستندات التي كانت بحوزتهما.

وصلت هذه المواد في الرابع من أيار/مايو سنة 1942 إلى قيادة ومركز

شعب التقويم في مكافحة اللاسلكي ببرلين. وتألفت من نصوص ما مجموعه 538 رسالة لاسلكية، لكن الغنيمة الأكثر أهمية كانت الرواية، التي استخدمت كمفتاح وزودها ماير بملاحظات دونها على هوامشها، فتم العثور معها على الشيفرة الرئيسة، التي فكت بمعونتها الرسائل اللاسلكية وترجمت، وكانت تحمل جميعها توقيع «أركو». لم يعرف أحد في البداية ماذا يجب أن يفعل بالمواد، التي تكونت أساسا من أرقام وأسماء أمكنة وكلمات تغطية، كان من الجلي أنه تم الاتفاق عليها مع المركز: ويشير وجودها إلى حنكة القيادة في المركز الموسكوفي. بيد أن العرض البياني ساعد هنا كما سبق له أن ساعد في حالات كثيرة أخرى، فقد تم، أول الأمر، رسم أسماء الأماكن المذكورة في البرقيات على خريطة ذات مقياس كبير، فاكتشف المرء أن جميع الأرقام تقع بين 0001 و 2400، أي أنها يمكن أن تكون نوعا من تقسيم الوقت إلى ساعات. بينما أشارت مجموعات الأعداد الثلاثية إلى نوع قطارات النقل وحمولتها. هكذا حلت الأحجية ببطء، وتبين أن البرقيات أبلغت المركز بجميع عمليات نقل القوات والذخيرة والتموين، التي كانت جارية على قدم وساق في القوات المسلحة الألمانية، وأن أركان الجيش الأحمر العامة كانت تمتلك صورة دقيقة عن حشد الهجوم الألماني الوشيك وقوته، وعن توقيته أيضاً، وأنها كانت في وضع مكنها من اتخاذ تدابيرها الضرورية المضادة.

في هذه الأثناء، قام مركز مكافحة اللاسلكي في ميدان كنيسة متى ببرلين بشيء آخر: فقد قارن نتائج «أركو» العامة مع مواد: «الحمر الثلاثة»، بقدر ما كان قد نجح حتى ذلك الوقت في حل شيفرتها، كما أدخل استفسارات المدير، الموجهة إلى «دورا» في التحليل، فتبين أن معلومات مراكز العملاء تكاملت أو كان يراد لها أن تتكامل. عندئذ، تم فهم سبب الأسئلة الرقابية المتكررة، التي وجهها المدير إلى دورا. لم يعد الأمر يتعلق هنا بجاسوسية من النمط القديم، بل ببحث متأن ومعرفة أكيدة حول العدو،

مارستهما الأركان العامة السوفياتية، مثلما مارسهما الألمان بدورهم.

كيف كان رد فعل القيادة العليا لقوات ألمانيا المسلحة؟. يكتب فليكه[1]، الذي تتبعنا تقريره في قسماته الكبرى، عن «الدهشة المربكة»، التي أثارها التقويم النهائي للمواد البولونية في مركز شعبة المكافحة الألماني، خاصة وأن العاملين هناك لم يكونوا يعرفون بعد الطرائق العلمية للعمل الاستخباري السري، فضلا عن أنه بدا وكأنهم لا يعرفون «الوضع الكبير» بالقدر الضروري، المتفق مع أهداف هذا العمل. هذا ما كان عليه الحال في ظل السرية المبالغ فيها لقوات ألمانيا المسلحة: ولو وقف من يقومون بالتقويم لدى مكافحة اللاسلكي الألمان مرة واحدة فقط أمام خريطة العدو، التي وضعتها شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، لربما كانت دهشتهم أشد، فهذه الخريطة كانت موضوعة على أساس الملاحظات والمستندات جميعها، بدءا بملاحظات مستندات الاستطلاع الجوي والبرقي الميداني. لكن تبادل المعلومات كان ممنوعا منعا باتا بالأمر رقم واحد، الذي أصدره الفوهرر يوم 10 كانون الثاني/يناير من سنة 1940، فلم تعرف اليد اليسرى ما تفعله اليد اليمنى، وخاصة في مجال الاستخبارات السرية. أما الرؤية العامة لوضع الحرب، فكان يجب أن تبقى حكرا على هتلر ودائرة ضيقة من قادة النظام النازي. هذه السياسة التي كانت تقطّع الحقيقة وتجزئها، لا زالت تفعل فعلها اليوم أيضاً، وتؤدي إلى أحكام خاطئة، غالباً ما يرتكبها المشاركون في الحرب.

كانت النتائج السلبية لهذه السياسة ظاهرة للعيان آنذاك، خلال عامي 1942 و 1943، كما هو جلي اليوم. من ذلك على سبيل المثال أنه حدثت مبالغة شديدة في مضمون رسائل جنيف ولوزان البرقية، التي تم التقاطها أو تمت المشاركة في قراءتها. لم يعرف المرء ببساطة، كم كان عدد المعلومات

(1) فليكه، مرجع سابق، ص 213.

الغائمة، نصف الحقيقية والمضللة، التي كان يتلقاها. ذلك أنه لم يصل إلى ميدان كنيسة متى في برلين غير الرسائل البرقية، بينما كان وضع العدو معروفا بالجملة لدى شعبة «الجيوش الأجنبية»، حيث صبت جميع المعارف، التي جمعتها سائر مصادر المعلومات. بدوره، كان مشروع «أركو» سيمد الشعبة بإشارة واضحة إلى نوايا السوفيات المحتملة، لو نظر إليه بارتباطه مع معلومات أخرى.

يستحق ظرف صاحب ظاهرة «أركو» أن نخصه بذكر خاص: اعترف الضابطان البولونيان السابقان أنهما تلقيا رأس مال من أجل إطلاق مشروعهما الكبير، اقتصر على ألفي دولار أميركي فقط. بالمقارنة مع الإنفاق المعروف في الاستخبارات السرية، كان هذا المبلغ تافها إلى أبعد حد، يفسره نفور البولونيين من المحتلين الألمان. هذا الظرف، أفاد منه قائدا العملاء كلاهما، اللذان كان بوسعهما ليس فقط العيش بنفقات محدودة وسط السكان البولونيين، بل الحصول في الوقت نفسه على آلاف المعلومات المتفرقة، التي لم تكلفهما غالباً أكثر من ثمن كأس شراب. لذلك، لا بد من الموافقة على ملاحظة فليكه، التي يقول فيها: «هنا انتقمت أمة لنفسها من حملة سنة 1939» - ومن سياسة الاحتلال النازية التالية لذلك، كما أود أن أضيف. لقد حذر الجيش والأركان العامة من هذه النتائج، واعترض عليها على سبيل المثال العماد بلاسكوفيتز، أول قائد عسكري في «الحكومة العامة»، في مذكرة حادة كتبها خريف سنة 1939، فما كان من هتلر، الذي كان يمنع مثل هذا التدخل من عساكره في قراراته السياسية، إلا أن أعفاه من منصبه. لكن الجندي الألماني شعر منذ سنة 1942 بالنتائج المخيفة وهي تضغط عليه بقوة متزايدة، رداً على ذلك، أطلقت شعبة «الجيوش الأجنبية» شعار «التحرير بدلاً من الاحتلال».

مهما يكن من أمر، فقد شهد يوم 12 أيار/ مايو من سنة 1942 الحدث

الذي كانت الشعبة قد تنبأت به: إنه الهجوم الوقائي، الذي شنه المارشال السوفياتي تيموشنكو ضد مجموعة جيش الجنوب بقيادة المارشال فون بوك. انقض السوفيات على القطاع الأوسط من الحشد الألماني غير المكتمل، الذي كان بوسع الأركان العامة السوفياتية متابعته بدقه نهاية نيسان/أبريل، بفضل معلومات «أركو». غير أن انقطاع سيل المعلومات في تلك اللحظة، ألحق ضررا فادحا بالمهاجم السوفياتي، كما تبين بعد ذلك مباشرة، إذ فشل الروس في تدمير الوحدات الهجومية الألمانية، قبل أن تبلغ قوتها الهجومية التامة، لأن الألمان كانوا أفضل خبرة وأكثر تجربة في الحرب، ولأن قيادتهم كانت أكثر مرونة ودهاء. صحيح أنه حدثت أول الأمر مشاكل على الجانب الألماني، لكن الوحدات السوفياتية الكبيرة، التي قامت بالاختراق ما لبثت أن قطعت عن غيرها، وطوقت وأبيدت، وتركت في ميدان المعركة حطام 1250 دبابة و1200 مدفع غنمها الألمان. وكانت مكافحة اللاسلكي الألمانية قد جففت في الوقت المناسب نبع «أركو» للمعلومات، فأسهمت بذلك في إقامة الشروط الاستخبارية اللازمة لنجاح الألمان الدفاعي. بالمقابل، لم يمكن القيام بالهجوم، الذي كان سيتم شنه في اتجاه الدون والفولغا، إلا في الرابع من تموز/يوليو سنة 1942، مما أضاع أسابيع ستة ثمينة من الطقس الجيد.

4

لم تبلغ المكافحة الألمانية كامل تطورها رغم إنجازاتها هذه، لأنها عانت، كما يقول تقرير وضعه ضابط مسؤول[1]، من تلازم وتداخل الوحدات، والمهام، ومراكز الخدمة، والدوائر، والرؤساء. لقد كانت تابعة من جهة لسلاح الإشارة، وتعمل بإمرة رئيس الاتصالات الاستخبارية في

(1) المخطوط بحوزة المؤلف.

القوات الألمانية المسلحة. بينما كانت تتولى، من جهة أخرى، مهام كبيرة في مجال مكافحة العملاء، وتقدم تقاريرها ومستنداتها إلى مكافحة الأميرال كاناريس وإلى شعبة «الجيوش الأجنبية»، التابعة لقيادة الجيش العليا. في حين كانت جهات أخرى تقوم بعمليات إبطال أجهزة إرسال العملاء، مع أنها تأسست بالأصل لدعم مجموعة مكافحة / الخارج في قيادة القوات المسلحة، غير أنها ألحقت لأسباب تقنية بالمجموعة الثالثة من شعبة مكافحة الأثير، التي كانت وبقيت مجموعة صغيرة، ومكتب تصنت وحسب تم «تنظيفه» بصورة متكررة، فبقي عاجزا عن مواجهة الأعباء الثقيلة، بالنظر إلى عدد أجهزة إرسال العملاء السريعة التزايد وراء الجبهات.

لم تبلغ المكافحة كامل قدرتها على العمل إلا مطلع سنة 1942، حين عينت لها برلين، أخيرا، رئيسا مختصا بالإحاطة والتقويم، أتبع بالقيادة العليا للقوات المسلحة / شعبة الاتصالات لدى الاستخبارات العسكرية / الشعبة الثالثة لاسلكي، مثلما نصت تسميتها الرسمية. مع ذلك، فإن العاشر من أيلول/ سبتمبر سنة 1940 كان يوم مولدها الحقيقي، المبكر، كما يجب القول، لأنه تم في هذا اليوم تعيين المقدم والمهندس هانس كوب قائدا لها. وكانت لديه معارف وخبرات ممتازة في الاتصالات، لكنه لم يكن رجل استخبارات سرية[71]. بسبب عزوف قائد الحرب الأعلى عن الاهتمام بها، تطلب «وقوف» مكافحة اللاسلكي على قدميها عاما آخر. وللعلم، كان لدى الجيش ساعة قيامها كتيبتي رصد لاسلكي، امتلكتا أول الأمر موقع رصد ثابتاً في الدنمارك. ثم قامت كتيبة ثالثة مطلع سنة 1942، جاءت في الربيع إلى الشرق واستخدمت في مكافحة أجهزة لاسلكي الأنصار. وكان لدى سلاح الجو أيضاً كتيبتا رصد لاسلكي، فضلا عن سرب من 9 طائرات ثم من 12 طائرة فيلزر شتروشه مزودة بأجهزة سبر. أما شرطة النظام ـ وكانت مكافحة اللاسلكي تعتمد على التعاون معها ـ فكانت تمتلك من جانبها 7 مواقع مسح

برقي وقوة سبر قتالي قريب. في حين نمت المواقع الخارجية للمكافحة اللاسلكية حتى سنة 1944 إلى ثمانية مواقع رصد عن بعد، وعشرة مواقع سبر عن بعد، و17 قطار مكافحة ميدانية عن قرب، توزعت على مجال السيطرة الألمانية بمجمله. حتى في بلغاريا ورومانيا، وسردينيا وصقلية كان هناك قطارات مكافحة ميدانية عن قرب، لأنه لم يكن بوسع المرء أن يعرف... أخيراً يقول التقرير، «... لإعطاء هذا الجهاز إطارا عسكريا ملائما يعزز العمل، ويضمن تدريب الأجيال التالية، ويغلق بعض الشيء على الأقل الثغرات التي تسبب بها «الأبطال المزعومون»، تم بداية سنة الحرب الأخيرة، بشيء من التأخير ودون أخذ شرطة النظام بالحسبان، تشكيل فوج رصد لاسلكي من ثلاث شعب (قائد الرصد اللاسلكي لدى قيادة القوات المسلحة العليا)». لم يكن كادر وتنظيم رصد اللاسلكي ومكافحته كافيين في أي وقت من الأوقات، مع أن مهامه نمت وغدت أكثر صعوبة .، فحمل على الدوام أعباء أكبر من قدرته. يقول التقرير الذي بين أيدينا: إنه عمل في مكافحة اللاسلكي حتى نهاية الحرب نحو ألفي ضابط وموظف وصف ضابط وجندي ومساعدة. وأن شرطة النظام كانت تؤدي مهامها بضعف هذا العدد من العاملين. لكن أجهزة الإرسال التي استخدمها العملاء في المناطق المحتلة أخذت حجما لم يكن بوسع أحد التفكير فيه سنة 1940. صحيح أنه أمكن إبطال 550 جهازا، لكنه كان هناك سنة 1943/ 44 خمسمئة جهاز آخر في مقابل هذه الأجهزة، أمكن كشفها وتحديد مواقعها. بينما بقي بلا عدد الكم المضاعف في أقل تقدير من مواقع لاسلكي العملاء الغامضة. هذا ليس كل شيء بعد، لقد كانت المواقع تشبه رؤوس الهيدا: كلما قضي على واحد منها، حل بعد حين إثنان محله. تلك كانت الحال في منطقة الحرب الشرقية خاصة، حيث أمكن سنة 1943 / 1944 رصد مواقع 140 مركز لاسلكي وراء الجبهة وتحديدها. بالمقابل، كان الأثير فوق الرايش خلواً من العدو، بعد

كشف الروته كابيله، مع أنه أبقي فيما بعد على الرصد المعزز، وخاصة في برلين، التي تم تمشيطها بأجهزة تحسس وبحث ميداني تعمل عن قرب، دون نتيجة. أخضع المرء أيضاً مقر الفوهرر الرئيس لرصد لاسلكي، بعد قراءة الرسائل البرقية، التي كانت تذهب من سويسرا إلى موسكو. هذا التدبير بدا ضروريا، لكنه بقي بدوره من دون نتيجة.

يكتب الجنرال براون في مذكراته[1]: «لا بد أن نلاحظ من جهة أخرى كيف أمكن لأخبار حميمة أن تنتقل منذ فترة طويلة خلال ساعات قليلة من مقر الفوهرر الرئيس إلى راديو الحلفاء في كاليه أو لوكسمبرج. لقد نشرت كتيبة رصد حول مقر الفوهرر الرئيس، استمع إلى مرسل سري، لكن هذا لم يأت بنتيجة». وقد قيل عندئذ إن عمال هواتف هتلر كانوا يصيخون السمع إلى محادثاته، أو أن بعض غير المخولين دخلوا على خطوطه. لذلك تم احتلال توصيلات هواتف مقر الفوهرر الرئيس بطريقة مباغتة، لكنه لم يتم العثور على شيء»[72].

ثمة إشارة أخرى ندين بها إلى براون، يجعلنا إمعان التفكير فيها نؤمن بصحتها: زعم مدير الرايش بورمان سنة 1944 أن اتصالاته البرقية الكتابية مع مدراء المحافظات ليست كافية، وطلب شبكة برقية خاصة به. لكن الجنرال براون كان يرفض وضع شبكة كهذه تحت تصرف المدنيين، بسبب الخطر الذي يمكن ان يترتب على إساءة استخدامها. إلى هذا، لم يكن الجيش يستطيع آنذاك الاستغناء عن الأجهزة البرقية أو الكادر الضروري لتشغيلها. عندئذ تدخلت البحرية الحربية ووضعت الشبكة البرقية المطلوبة بتصرف بورمان. كانت البحرية قد خزنت أجهزة لاسلكية للغواصات، وضعتها الآن في متناول من يرغبون فيها، لأن الغواصات لم تصنع أبدا. كما كان لديها

(1) براون، مرجع سابق، ص 224 وما يليها.

عمال لاسلكي بعثت بهم إلى ديوان الحزب وليس إلى الجيش، حيث كانت الحاجة إليهم ماسة أكثر. ليس معروفا ما إذا كانت قد تمت مراقبة أو رصد شبكة اللاسلكي لدى مدير الرايش، حيث نشأت بالتأكيد منطقة مظلمة.

5

لنعد مرة أخرى إلى مكافحة اللاسلكي المعادي، وخاصة نشاطها على الجبهة الشرقية. استخدمت كتيبة مراقبة اللاسلكي الثالثة ضد أجهزة لاسلكي الأنصار، فلماذا تكاثر هؤلاء إلى الدرجة التي كانت لهم؟. ولماذا بعثوا منذ مطلع سنة 1942 قدرا من الاضطراب في مناطق ما وراء الجبهة، وخاصة بالنسبة لمجموعة جيش الوسط، جعل التموين المنظم للوحدات أمرا غير مؤكد؟. كانت شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» تمتلك صورة دقيقة عما يحدث. وقد حذرت دوماً من المس بكرامة شعوب الشرق، لمعرفتها بما يمكن ان يترتب على ذلك، وإيمانها بسياسة تقوم على: التحرير لا الإخضاع، والتحالف لا الفتح. كان الجنرال كوسترينج، الملحق العسكري السابق في موسكو، يدعم هذا التوجه، الذي أكده فيما بعد شاهد غير متحيز هو الأميركي دالين، عندما وضع كتابا عن سياسة الاحتلال الألماني في روسيا[1]. لكن هتلر لم يكن يقبل التعلم، فكانت النتائج منذ سنة 1942 مؤذية بصورة متعاظمة: فقد تزايدت مقاومة الجيش الأحمر في «الحرب الوطنية»، وعزف شعب المنطاق المحتلة عن التعاون مع الألمان، وأسس عصابات مقاتلة قامت بفضل إعادة تجميع الجنود السوفيات، الذين كانوا قد تشتتوا خلال العمليات العسكرية، وخافوا الوقوع في الأسر الألماني، وطوروا تكتيك حرب أنصار خاص بهم، فهم في النهار مواطنون بسيطون، وفي

(1) دايفيد دالين: السيطرة الألمانية في روسيا 1941 ـ 1945، نيويورك 1958، بالألمانية، دوسلدورف 1958.

الليل مقاتلون وزارعو ألغام، يعيشون وفق نظرية ماوتسي تونج الشهيرة «كالسمك في الماء»، بين سكان يتحدثون لغتهم ويتعاطفون معهم. في هذه الأثناء، دخل المركز الموسكوفي على الخط، وزودهم بقادة مجربين ومبرقين مميزين، ألقى بهم وراء خط الجبهة بالمظلات وهم يحملون أجهزة لاسلكية خاصة، فزادوا بصورة مضطردة عدد عملاء اللاسلكي السوفيات وراء جبهة الألمان.

حدث الاستخدام الكثيف الأول لهؤلاء الراصدين، الذين كانت لهم عيون وآذان في كل مكان، منذ مطلع سنة 1942، في جنوب الجبهة الشرقية. بحسب نموذج سنة 1812، أغرت القيادة العليا السوفياتية المعتدين ـ وهي تبدي مقاومة متواصلة ضدهم كبدتهم خسائر فادحة ـ بالتوغل عميقا في أبعاد الشرق اللانهائية، باتجاه الفولغا والقوقاز، ليبتعدوا أكثر فأكثر عن قواعدهم التموينية. في هذه النظرية الكلاسيكية للحرب، كان يجب على الألمان أن ينهاروا تحت وطأة الجهود التي يبذلونها، فيصير من السهل دفعهم، عندئذ، إلى نهايتهم الحتمية. وبالفعل، تم هجوم السوفيات المعاكس، عندما بلغت قدرة الألمان على الهجوم ذروتها وبدأت تنقلب إلى إجهاد وضعف.

لم يكن السهب المفتوح جنوب الجبهة الشرقية ملائما لحرب الأنصار. بيد أنه كانت هناك طرق أخرى لإلحاق الأذى بالمعتدي. هكذا ترك في جميع النقاط المهمة من المناطق التي تم إخلاؤها عملاء يديرون أجهزة لاسلكي، بينهم خبراء متخصصون في التنصت والراديو، جمعوا معلومات عن المهاجم أوصلوها برقيا إلى المركز. استخدمت مكافحة اللاسلكي ضد هؤلاء أيضاً، ولاحقتهم عن كثب وتمكنت من رصدهم وتحديد مواقعهم. ولكن هل ساعد هذا، إذا كان قد تم كشف 90 جهاز إرسال وإبطاله سنة

1942، و169 سنة 1943 و 170 سنة 1944؟. وكانت مكافحة اللاسلكي غير قادرة على التدخل في أكثر من 1000 حالة تم رصدها، لأنها كانت تفتقر إلى القدرات الضرورية لذلك، وإلى وحدات الشرطة الضرورية للتدخل[73]. كانت الإمكانات تتناقص وتزداد ندرة في كل مكان منذ سنة 1943. ويتذكر المؤلف محادثات كثيرة محبطة حول هذا التناقص، جرت في دوائر قيادية كثيرة على الجبهة الشرقية.

ألقيت منذ سنة 1943 أعباء إضافية على كاهل مكافحة اللاسلكي الألمانية، بسبب ظهور ما سمي مجموعات الاستطلاع العملياتي في الجيش الأحمر، التي كانت وحدات خاصة بقوة 8 إلى 12 رجلا، تضم خبراء رصد مدربين يقودهم رجال لديهم مؤهلات مميزة. وقد أرسل هؤلاء عبر الجبهات الألمانية التي لم تعد مغطاة بصورة كثيفة بالقوات، ليرصدوا وراء خطوطها مخازن قطع التبديل، ومستودعات الذخيرة والتموين، وأوضاع الطرق، وتغطية المناطق بالقوات، وملاجئ الأركان العليا، ويخبروا قياداتهم مباشرة بذلك. إلى هذا، كان عليهم الإغارة على المراسلين في الطرق. ويذكر المؤلف أنه تمت في شباط/فبراير من سنة 1944 الإغارة عند حلول المساء على مراسل تابع للمقر الرئيس لمجموعة جيش الجنوب في كريفويروك، على بعد ستين كيلومتراً وراء الجبهة المتقدمة، وأنه خنق بسلك وسرقت حقيبته بما كان فيها من أوراق سرية[1]. هذه أيضاً كانت طريقة في الحصول على المعلومات. في منعطف سنة 1943/1944، رصد الألمان وراقبوا مجموعة استطلاع الرائد الروسي ناخمونوف طوال أشهر في منطقة فيتبسك وراء جبهة الجيش المدرع الألماني الثالث، دون أن يتمكنوا

(1) وضع تقرير حول هذه الواقعة اضطلع المؤلف عليه، بحكم نقله آنذاك إلى أركان قيادة مجموعة جيش الجنوب.

من إلقاء القبض عليها، مع أنهم كانوا يعرفون أنها بعثت بواسطة اللاسلكي معلومات لا حصر لها إلى الشرق، وأن محطاتها اللاسلكية كانت اليوم هنا وغدا هناك.

غير أن هذه «الصرعة الأخيرة» لاستطلاع الجيش السوفياتي الأرضي وراء الجبهة الألمانية، قدمت لشعب «الجيوش الأجنبية شرق» معارف مثيرة للاهتمام، وإن بطريقة غير مباشرة. ذلك أن تحديد مواقع اتصالاتها اللاسلكية كان يسمح، لدى مراقبتها بصورة منهجية، باستنتاجات بعيدة الأثر، كانت صحتها تتأكد في العادة: لقد كانت الاستخبارات الألمانية تستخلص من عملها إشارات أكيدة تدل على اتجاه ونقاط ثقل الهجوم السوفياتي التالي، وكانت أركان الجيش العامة تعرف ما سيحدث. وقد رسم راينهارد جيهلن في مذكراته[1] لوحة غنية عن عمل مجموعات المستطلعين السوفيات من 1/ 11وحتى 30/ 11/ 1944، وقارنها بمثيلتها في هجوم الشتاء السوفياتي من 1/ 11/ 1944 إلى 25/ 1/ 1945، حيث استخدمت من الشمال إلى الجنوب 15 مجموعة استطلاع على الجبهة الروسية البيضاء الثالثة، و8 على الجبهة الثانية و 19 على الجبهة الأولى، وأرسلت الجبهة الأوكرانية الأولى 19 مجموعة استطلاع والجبهة الرابعة 8 مجموعات أمامها، في اتجاه سلوفاكيا. بينما أرسلت أركان الجيش الأحمر العامة بدورها ما لا يقل عن 26 مجموعة استطلاع بعيداً وراء الخطوط الألمانية، وخاصة إلى منطقة سيليزيا العليا الصناعية، ومنطقة دانتسك، بعد أن كلفتها بمهام خاصة. هذا ما يقوله جيهلن. وكانت شعبته تمتلك حتى في المرحلة النهائية من الحرب معرفة مدهشة عن الاستخبارات السوفياتية، أسهمت مكافحة اللاسلكي بقسط وافر فيها، أقله على صعيد الرصد وتحديد المواقع.

(1) مرجع سابق، ص 90 وما يليها.

6

انطلق من مكافحة اللاسلكي في قيادة القوات المسلحة العليا تأثير غريب لاحق، استمر الشعور به إلى اليوم. ذلك أنه كانت تتم المبالغة كثيراً في قيمة الرسائل البرقية وأهميتها، التي كان يتم فك رموزها في مركزها، الذي كان يعتقد أنها تتضمن أسراراً عسكرية تخص أعلى مراتب القيادة، مثلما أكد مراراً وتكراراً الكساندر فوته، أحد مبرقي «الحمر الثلاثة» في سويسرا، في تحقيقه «مرجع مختصر للجاسوسية». هذه الخرافة انتقلت إلى أدبيات الجاسوسية، التي دارت حول «الروته كابيله» وشبكة ساندور رادوس. وقد سقط فليكه، الهاوي العسكري، ضحية لها، بل ان ضباط المكافحة أنفسهم اعتقدوا أن الرسائل تحتوي معلومات من الدرجة الأولى، على الرغم من أنها كانت غالباً تلخص مضامين أحاديث تجري في الكازينوات، تختلط فيها الحقيقة بالإشاعة اختلاطاً عشوائياً، لكنهم خدعوا بها في ميدان كنيسة متى ببرلين، واعتبروا مضمونها صحيحاً لا تشوبه شائبة.

في حوزتنا تقرير غير مطبوع يكشف خطأ هذا التقدير، ويقيم بكل جدية رابطة بين الخيانة الوطنية الناجمة عن الإهمال و«ثرثرات الكازينوات»، التي غالباً ما كانت مصدر معلومات غنيا في نظر مراكز الاستخبارات السويسرية، وبين 20 تموز/يوليو من سنة 1944، جاعلا من مرتكبي خيانة النظام خونه لبلدهم أيضاً !. وملمحا أيضاً إلى احتمال أن يكون الجنرال فيلجيبل وجنرال تيله على صلة بهذه الألاعيب، أو التزموا الصمت تجاهها[1]. هذه المصادر هي منبع الأسطورة التي زعمت أن رودولف روسلر، الذي كان مهاجرا في سويسرا، كان يتلقى بصورة مستمرة معلومات من «زملاء حرب قدماء». بهذه الطريقة كانوا يريدون إسقاط هتلر !. نحن

(1) مخطوط غير منشور كتبه ضابط سابق في مكافحة اللاسلكي. الأرشيف الخاص بالمؤلف.

نعلم اليوم أن روسلر كان على اتصال مع عدد من الجواسيس في ألمانيا، حتى بعد انهيار الفرع البرليني من «الروته كابيله»، لكن هؤلاء لم يكونوا ينتمون إلى الحلقة الداخلية من قيادة القوات المسلحة العليا، بل يجب البحث عنهم على أطرافها: في حلقات محرري مجلات الجيش وعمالها، التي كانت تصدر في برلين، حيث كان يوجد ثمة أصدقاء أو معارف قدماء له. من الممكن أن يكون هؤلاء قد أرسلوا معلوماتهم إلى كونستانس، حيث أوصلها عابرو الحدود السويسريون إلى روسلر[74]. هذا ما قاله رادو سنة 1945 للجاسوس الألماني هانس إيبللر، عندما كانا معا في معسكر اعتقال بريطاني قرب القاهرة[1]. بينما دلت تحريات أخرى أنه لا يمكن قبول الفرضية التي تزعم أن: فيرتر لم يكن شخصا حقيقيا[2]، وأن روسلر كان يتلقى معلوماته من المصادر السويسرية حصرا. تشير معارفنا الراهنة إلى أن روسلر تلقى معلومات من الدوائر المذكورة، كانت على كل حال متفاوتة إلى أبعد حد في قيمتها، ولم تكن أبدا من مصادر درجة أولى. أسهم الاستطلاع البرقي الألماني إسهاما عظيما في توضيح هذه «الحالة»، حين التقط وفك رموز القسم الأكبر من الرسائل البرقية المتبادلة بين سويسرا وموسكو. بذلك، بقيت مواد دراسية مهمة بانتظار تحليل نقدي لأنشطة الاستخبارات خلال الحرب العالمية الثانية، ما كان يمكن القيام به قبل صدور الجزء الثالث من تاريخ تنظيم الجيش الألماني سنة 1969 تحت عنوان حرب الجبهتين، بقلم بروكارت موللر -هيلدبراند، الذي قدم المستندات الضرورية عن تكوين جميع فرق الجيش وقتالها في الحرب العالمية الثانية. أما استطلاع الاستخبارات، فهو بالتأكيد أصعب المسائل وأكثرها استهلاكا

(1) خبر شفهي أبلغه إيبللر للمؤلف.

(2) فون شرام: الخيانة في الحرب العالمية الثانية، ص 173.

للوقت، التي يطرحها تاريخ الحرب على المؤرخ، لذا يتم تفاديها في الغالب، كأنه لم يوجد قط جمع سري للمعلومات والأخبار.

لم تقم بعد نهاية الحرب يوم 8/ 5/ 1945 قائمة لمكافحة اللاسلكي الألمانية. لقد عجزت عن تأدية خدمتها، بعد أن أضاعت تدريجيا مراكزها الخارجية، حتى لم يعد لديها بعد شباط/ فبراير 1945 مواقع صالحة للاستخدام، وصار من العبث أن تحدد في أشهر الحرب الأخيرة مواقع الأجهزة المعادية ومحطات العملاء البرقية، لأنه لم يكن بمستطاع الألمان مكافحتها. هكذا سقط الشراع، وانحلت المكافحة اللاسلكية يوم 30 نيسان/ أبريل 1945، فنقل قسم من منتسبيها إلى وحدات أخرى، وسرحت المساعدات العاملات لديها، ولم يبق لدى قائد سلاح الاستطلاع الاستخباري، العقيد بوتسل، أي إمكانية لاستخدام هذه الأداة الفائقة الأهمية بالنسبة إلى قيادة الجيش. بذلك، اختفت المكافحة من دون ضجيج من تاريخ الحرب الألماني، فكان اختفاؤها مصيرا لا تستحقه.

الفصل الخامس

ألاعيب اللاسلكي وخدعه

إمكانات وحدود

1

اتسم تاريخ الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية بكثرة تقلبه. إلا أنه لم يكتسب طابعه الخاص بفضل حالات التجسس الكبيرة، بغض النظر عن الاهتمام الذي يمكن لبعض تفاصيلها أن تثيره، بل بسبب العمل المتواصل لجمع الأخبار سرا من اتصالات العدو اللاسلكية، الذي بدأت به حقبة جديدة من عمل استخباري لا يتعلق بتفاصيل يتم تجسسها من حين لآخر، وتدور حول هذه الوثيقة الورقية أو تلك، بل انصب على امتلاك معرفة مستمرة حول قوى العدو جميعها ونواياها المحتملة. تحولت الحرب العالمية الثانية إلى أول حرب سرية شاملة في الأثير. أما الاستطلاع اللاسكي، التكتيكي أول الأمر، فقد انفتح على إمكانات جديدة جعلته قادرا على تكوين نقاط ثقل له في القطاعات المهددة، بينما تابع الاستطلاع العملياتي تفاصيل عمليات الحشد، المكرس للقيام بهجمات كبيرة، على سبيل المثال. في هذه الظروف، كان الصمت اللاسلكي كأداة مضادة يتحول إلى علامة تثير الشبهات. وعلى كل حال، كان العمل الاستخباري الموجه إلى العدو، يمكّن القوات المسلحة الألمانية من الأخذ باستراتيجية مرنة حتى في حرب

متعددة الجبهات، بفضل أداته الرئيسة، التي جسدها الحصول على الأخبار «من مصدر موثوق». غير أن الاستراتيجي الهاوي هتلر لم يكن كفوءا لهذه الفرصة، لافتقاره إلى معيار يقيس به ما يقبل التحقيق، وإلى ما يتفق معه من تأهيل عقلي. هكذا أخفق كقائد أعلى منذ سنة 1941 خاصة في التعرف إلى إمكانية الحصول على نظرة عامة إجمالية عن «الوضع الكبير»، والعمل في الوقت المناسب لملاقاة الأخطار الناجمة عنه، بفضل الاستخبارات المتخصصة بالعدو. حقق استطلاع الألمان اللاسلكي إنجازات متميزة، وأسهم في تخطي أزمات تكتيكية وعملياتية كثيرة على الجبهة الشرقية بصورة خاصة، وكان بوسعه ممارسة تأثير استراتيجي على مجرى الحرب، لو لم يحل موقف هتلر بينه وبين لعب دور كهذا.

رغم ذلك، تمكن الاستطلاع البرقي الألماني من تسجيل نجاحات كثيرة سنتي 1942/ 1943، لم تقتصر فقط على تحييد شبكات عملاء معادية، بل تجلت كذلك في اعتماد ألعاب (سجالات) لاسلكية مارسها طوال أشهر وسنوات كثيرة، دون أن يتمكن الجانب المعادي من اكتشاف ما كان يتعرض له من خداع، فبدا أن الألمان يحققون أعظم النجاحات في هذا المضمار، ولا يعانون فيه إلا من أقل قدر من الهزائم، بسبب جذرية تدابيرهم ودقتها. هنا وليس في الجاسوسية التقليدية، كان الألمان أساتذة. تستحق اثنتان من الخدع، او من مجموعات الخدع، اللاسلكية، أن تحظيا بإبراز خاص، لما نجم عنهما من نتائج بعيدة الأثر، كانت أولاهما ما سمي لعبة القطب الشمالي، التي بدأها مع لندن انطلاقا من هولندا وأدامها الرائد آنذاك جيسكه، العامل في مكافحة اللاسلكي، والمستشار الجنائي شرايدر، ثم ألعاب اللاسلكي المضادة، التي صدرت عن «الروته كابيله»، بعد أن تم تجنيدها لمصلحة الألمان، وكانت قد بدأت في فرنسا نهاية سنة 1942، وأمكن مواصلتها قرابة سنتين آخريين، بنتائج على أعلى قدر من الإيجابية

بالنسبة إلى القوات المسلحة الألمانية، أدت إلى إرباك شديد في خريطة موسكو عن العدو، أكده كم كبير من الرسائل البرقية، كما سنرى بعد قليل.

صارت معروفة مجريات ونجاحات لعبة القطب الشمالي و«الروته كابيله»، إذ أصدر المسهمان الرئيسان في اللعبة الأولى، جيسكه وشرايدر، قبل سنوات كتابين حولها. وكرس هاينس هونه عرضا مسهبا ودقيق المعالجة لد «روته كابيله»، يمكن متابعة تفاصيل الأحداث فيهما. لذلك سأكتفي هنا بتقديم ملخص عنهما: ألقي القبض في هولندا على مبرق قفز بالمظلة من أجل أن يلتحق بصفوف المقاومة الهولندية، قبل أن يبدأ البث اللاسلكي نحو إنجلترا. وقد نجح الألمان في إقناعه بالعمل لمصلحتهم، وجعلوه يطلب إرساليات دورية من الأسلحة والذخيرة والتموين، زعموا أنها مخصصة لحركة المقاومة الهولندية، لكنها نزلت جميعها في الأماكن المتفق عليها، حيث كانوا بانتظارها. هذه اللعبة، التي استمرت حتى فرار المبرق، أعاقت حرب الأنصار في هولندا، لكنها جنبت الهولنديين أعمال قمع لا ترحم، أمر الفوهرر القوات المسلحة والـ إس إس والبوليس السري باستخدامها ردا على المقاومة.

كانت حالة الـ«روته كابيله» أكثر درامية من ذلك بكثير. فقد نجحت مكافحة اللاسلكي الالمانية بالتعاون مع البوليس السري في تفكيك منظمة العملاء السوفيات هذه في الغرب بأسره، وقبضت على مبرقيها وصادرت أجهزتهم. غير أن هذا لم يكن هو الأمر الحاسم. فمثلما حدث بالنسبة للهولندي لاورس، تم هنا بالتتابع والتتالي القبض على من سمي الرئيس الصغير كنت وأتباعه في مرسيليا، وعلى الرئيس الكبير ليوبولد تريبر، المسمى جيلبرت، في باريس مع جمهرة من معاونيه. وكان قد قبض قبل ذلك في بلجيكا على المبرق يوهان فينسل، الملقب بـ«البروفيسور»، وأرغم

على البوح بما لديه. وأكد التحقيق نجاعة التعامل المليء بالإنسانية والأمل والتهديد، الذي طبق على من قبض عليهم. كمن التهديد في إخافة المعتقلين من تسليمهم إلى البوليس السري، الذي كان سيعني موتهم الأكيد. بينما كمن التغرير والأمل في إقناعهم بأنهم سينجون، وسيعيشون في شروط مريحة إن هم تعاونوا. وقد قبل بذلك أناس هامشيون، كما قبله كذلك من «الروته كابيله» في الغرب الرئيس الكبير تريبر، والرئيس الصغير فيكتور سوكولوف، الملقب بكنت، فضلا عن كثير من معاونيهما اليهود. ذلك كان الفصل الثاني من اللعبة. أما فصلها الثالث، فانطبع بطابع العمل المشترك مع المتعاونين الجدد في شروط تكاد تكون مريحة، حيث سكن رئيس «الروته كابيله» وأتباعه في فيللا في نويللي، عند الحد الغربي من باريس، كانوا يتحركون بحرية في حديقتها، ويتمتعون بنعم حياة مليئة بالامتيازات وسط الحرب، مثل السماح لهم بالذهاب إلى السينما بصحبة مرافقيهم. وقد تواصل بمساعدتهم الاتصال اللاسلكي مع موسكو، «بعد تشويش تقني» على الأجهزة الآمنة والخطوط الموجهة، واتخاذ الاحتياطات، التي تجعل من الصعب حدوث مشكلة، كإرسال تحذير إلى موسكو. كان على آمبلاتزر، خبير اللاسلكي في الشرطة السرية، أن يمنع أي عميل من وضع أصابعه على المبرقة، ويسهر على قيام مبرقين موثوقين بإرسال تلك الصور وحدها إلى موسكو، التي تفحص وتكتب بـ«الخط اليدوي» المناسب. هكذا وقع ما لا يصدق، فلم تشك موسكو في ما كان يجري، بينما كان يجري تشغيل ستة ثم خمسة أجهزة تحمل أسماء تغطية خاصة هي «سبنديانة»، «شوح»، «صفصافة»، «دغل ـ باسكال». بعد تصفية منظمة الجاسوسية الحمراء في فرنسا، تم استخدام لعبتين لاسلكيتين إضافيتين[1]، هما أيفيل واحد وأيفيل

(1) هونه: مرجع سابق، ص 255.

أثنان، جمعتا فيما بعد في لعبة لاسلكية واحدة هي مارس ـ ايفل، حيث مارس يعني مارسيليا، للإبقاء على وهم أن كنت كان يبعث برسائله منها، بينما كان قد أرسل منذ وقت طويل إلى باريس مرورا بشارع برنس ألبرت في برلين. في حين استخدمت حبيبته مارجريت باركسا كطعم[1]، قبل أن يعود إلى العيش مجددا معها في باريس.

في تشرين الأول سنة 1942 بدأ كنت ـ سوكولوف، ثم تريبر ويوهان فينسل يشاركان في اللعب اللاسلكية باعتبار أنها ألعاب مضادة يقوم بها الجانب الالماني. وقد بقي تريبر حتى فراره في 13 أيلول/ سبتمبر سنة 1943 أداة في يد المكافحة الألمانية، في حين بقي كنت ـ سوكوف كذلك حتى النهاية المرة، وكانا مسؤولين عن أرسال كميات هائلة من المواد التضليلية إلى موسكو. لو تصرف الرئيسان طبقا للايديولوجية الشيوعية، لكان عليهما قتل نفسيهما، بدل التعاون مع الالمان. لكن العملاء الحمر هم بدورهم بشر ويأملون بالحصول على فرصة تمكنهم من إنقاذ أنفسهم في النهاية. وقد نجح تريبر في إنقاذ نفسه. وكان الالمان قد لاحظوا أن المعاملة الحسنة تقود إلى الهدف أكثر من التهديد والابتزاز، وأنها مكنت فرقة اللاسلكي من مواصلة العزف لفترة طويلة على خمس آلات، كأنها لا تزال الـ«روته كابيله» القديمة عينها.

ترى، من أي شيء تتكون «مادة اللعب»؟. في الرسائل البرقية، التي بعث بها المدير من موسكو إلى رادو في سويسرا، وبقي لنا جزء منها، تتكرر دوماً عبارات معينة مثل «لدينا خبر» أو «راقبوا»، لأن موسكو أكثر تحفظا من أن تقبل معلومة دون أن تفحصها، وأكثر حذرا من أن تتخلى عن

(1) فليكه: روته كابيله، ص 341–376، وص 374. «واليوم (نهاية سنة 1942) تمارس سبع محطات الاتصال التضليلي مع المركز».

الرقابة المضادة. هكذا كانت تتوجه إلى رادو، كما سبق أن توجهت إلى مارس ـ ايفل، لمعرفة أشياء معينة منه، تحددها الرسالة رقم 28 بتاريخ 31 أيار/ مايو 1943، التي يطلب المدير فيها معلومات دقيقة حول ما إذا كانت قوات الاحتلال تعد لحرب غازات. «هل توجد مخزونات قنابل غاز في المطارات. إذا كان الجواب بنعم، ففي أي مطارات... أنقل إلي في أسرع وقت ممكن جميع المعلومات المتوفرة حول الغاز والمواد السامة».

كان ضابط شعبة الأركان الثالثة للقيادة العليا غرب في وضع صعب وحالة إضراب!. حتى إن القيادة في فرنسا كتبت إلى برلين حول ما يجري: «يذهب موقف القيادة العليا غرب إلى أن المحطة الرئيسة في موسكو تطرح منذ بعض الوقت قضايا من طبيعة عسكرية محددة، تجعل استمرار اللعبة اللاسلكية ممكنا وحسب، إذا ما أجيب عليها بطريقة محددة أيضاً، وإلا كشف المرسل الرئيس في موسكو اللعبة. غير أن أسبابا عسكرية كانت تمنع القائد الأعلى غرب من الإجابة ضمن صيغة مواد اللعب على الاسئلة المحددة التي تطرحها موسكو وتطلب فيها معطيات دقيقة حول أرقام الفرق وأسماء قادتها. وأصر القائد الأعلى غرب على وجهة النظر التي ترى أن الوضع العسكري في المنطقة الغربية يلغي مصلحة ألمانيا في تضليل المرسل الرئيس في موسكو».

بذلك ذوى مشروع «روته كابيله» بمرسله الرئيس مارس ـ ايفل، بعد فرار ترتيبر. لكن الألعاب مع المقاومة السرية الفرنسية تواصلت. وقد ترك كلاهما آثاره في الرسائل التي تلقاها رادو في سويسرا من المدير في موسكو. وهذا أحد أكثر الاكتشافات إثارة للاهتمام، فيما يتعلق بموضوع هذا الكتاب. إليكم فيما يلي أمثلة على ذلك:

1942 /10/20

إلى دورا

لدينا معلومة تقول إنه يتم تدريب جيش شتوي خاص من نصف مليون جندي في محافظة شتيتين / فرانكفورت على نهر الأدور. تأكدوا بالسرعة القصوى:

1 ـ إن كانت المعلومة صحيحة.

2 ـ إن كان هناك تمركز قوات في المناطق المذكورة.

3 ـ كيف سيكون هذا الجيس متراتبا من الناحية التنظيمية ؟

4 ـ أرقام الوحدات.

5 ـ عدد الجنود، لأن رقم 500000 يبدو مثيرا للشكوك.

التعليق: كان جيش الشتاء إشاعة هادفة نشرتها الاستخبارات. ومن الواضح أن خط مارس ـ ايفل تولى تعميمها «كمادة تضليل».

1942 /11 /26

إلى دورا

من الملح أن تراقبوا إن كان الألمان يعتزمون حقا سحب قوات نخبة من الجبهة الشرقية، وماذا يعنون بمصطلح «قوات نخبة». أي وحدات تنتمي إلى قوات النخبة، وماذا تعرفون عن تشكيل كتائب متطوعين؟.

التعليق:

كان يفهم بقوات النخبة: فرق الحرس المدرع المسمى «ألمانيا

العظمى»، وكانت تقاتل منذ أيار/ مايو 1942 في الشرق، ثم قوات الحرس الشخصي لأدولف هتلر، وقد نقلت في حزيران/ يونيو من سنة 1942 إلى فرنسا، وشاركت في هذه الأثناء في احتلال جنوب فرنسا، ثم فرقة الـ إس إس المسماة «الرايش»، التي استخدمت بطريقة مشابهة، وأخيراً فرق الـ إس إس المدرعة، المسماة «رأس الأموات»، وهي فرق ثلاث كانت قد جمعت في قيادة عامة خاصة بوحدات الـ إس إس المدرعة.

في 30/ 11 كلف المدير رادو بمهمة رقابية أخرى:

راقبوا وأبلغونا بسرعة إن كانت بعض القوات قد سحبت من الشرق إلى الغرب. إذا كانت قد سحبت، أبلغونا أرقام الوحدات وعددها.

يرجع التكليف التالي إلى «مادة تضليلية» على الأرجح:

13/ 12/ 1942

راقبوا فورا عبر مجموعة تايلور خبر جراو المهم حول وصول مفترض لجيش الجنرال فون فيتسليبن، مع عشر فرق تابعة لأركان جيش ميلانو، من فرنسا إلى شمال إيطاليا.

التعليق:

كان المارشال فون فيتسليبن قد ترك منصبه في شباط/ فبراير من سنة 1942 بسبب المرض. في هذه، وفي غيرها من المعلومات التضليلية، يبرز الميل إلى إعادة قادة الجيش الذين انتهت خدمتهم إلى دائرة الضوء، بعد تزويدهم بمراكز قيادية جديدة. هذا ما جرى أيضاً لجودريان.

بلغت لعبة «الروته كابيله» غرضها الرئيس في شتاء 1942/ 1943، عندما تمكنت من منع استطلاع فرنسا بطريقة منهجية، وحجبت الاحتياطيات التي كانت موجودة هناك، وشوشت صورة موسكو عن عدوها الغربي. هكذا بقي

نقل مجموعة الـ إس. إس. المدرعة، الوحدة ذات القدرات القتالية الخاصة، التي تضم الفرق الثلاث «الحرس» و«الرايش» و« رأسِ الأموات»، من الغرب إلى الشرق في كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير من سنة 1943، مجهولا، مع أنها قامت بالجهد الأكبر في الهجوم الدوري جنوب الجبهة الشرقية في شباط/ فبراير وآذار/ مارس من السنة نفسها. أما أن موسكو لم تحسب حساب هجوم كهذا، فيثبته تكليف يوم 6/ 2/ 1943 إلى رادو

إلى دورا

أطلبوا من لوسي معلومة ملحة حول ما إذا كان الألمان يخططون لشن هجوم مضاد في القطاع الجنوبي قرب ستالينو، وأين هي الآن المجموعة المدرعة الأولى.

التعليق: أثناء هذه الرسالة البرقية كانت الفرق الثلاث تتجمع، لتبدأ هجومها الدوري، الذي شنته يوم 14 آذار/ مارس من أجل استعادة خاركوف، وانتهى باستقرار الجبهة الألمانية يوم 20 من الشهر ذاته على الدونيز والميوس.

هل تلقى لوسي ـ روسلر مواد تضليلية أيضاً؟

ثمة مؤشرات محددة تبين أن واحدا من أجهزة الإرسال الخمسة، التي كانت تشغلها الـ«روته كابيله» المزورة، كان يمد مصادر روسلر الغربية بالمعلومات. بغير ذلك، يكون من المحال تفسير المعلومات المضللة الكثيرة، التي أوصلها في الأشهر الاولى من سنة 1943 خاصة إلى موسكو، والتي لم يحصل عليها من قيادة القوات المسلحة في برلين. إنها معلومات لافتة إلى درجة جعلتها تستدعي استفسارات في معظم الأحيان، وأدت في حالة معينة إلى تلقي توبيخ شبه رسمي من المدير. إذا ما نظرنا إلى معلومات روسلر من جهة مضمونها، استبعدنا ان يكون ضباط القيادة العليا للقوات

المسلحة السامين بين مخبري لوسي - روسلر الدوريين، الذي كانت لديه، على كل حال، مصادر معلومات متنوعة، ولو كان اكتفى بذكر «فيرتر» واحد فقط، كان في الحقيقة مجرد وهم، لم يوجد قط كشخص فرد وكمخبر، الأمر الذي يبدو أن معارف أخرى تؤكده[1]. مهما يكن من أمر، فإن تحليل رسائل المدير البرقية إلى دورا يصل إلى نتائج مثيرة للاهتمام. وهنا بعض أمثلتها الفاقعة:

1942/10/27

إلى دورا

1) من أي مصدر حصل تايلور على معلومته حول الجيش الالماني على الجبهة الشرقية؟. من أحاديث أم من وثائق؟.

2) تأكدوا إن كان جودريان موجود حقا على الجبهة الشرقية، وماذا إذا كان تحت إمرته جيشان أو ثلاثة.

3) هل سيصبح الجيش المدرع الرابع مجموعة جيش بإمرة يودل، وهل تنتمي أم ستنتمي إلى هذه المجموعة جيوش مدرعة أخرى؟. وما هي أرقامها؟.

4) أي طريقة في الترقيم تعتمد القيادة العليا للقوات المسلحة؟. نرجو إجابة سريعة.

المدير

(1) للمعلومات المنسوبة إلى «فيرتر» قيمة متباينة أشد التباين، تثير أحيانا الاستغراب، منها على سبيل المثال برقية يوم 6 تموز/يوليو سنة 1943 حول عملية «القلعة»: «لم تكن قيادة الجيش العليا راغبة في شن هجوم، فقد افترض الألمان أن الروس سيعزون الهجوم إليهم، ليتمكنوا من استغلال ذلك دعائيا لدى الجنود الالمان.

تشير هذه الأسئلة إلى سلسلة كاملة من معلومات خاطئة أوصلها إلى موسكو تايلور ـ شنايدر، الوسيط بين روسلر ـ لوسي وسيسي ـ رادو. طبيعي أنه لم يكن يستطيع أخذها من وثائق، بل من مداولات وأحاديث شفهية. ترى، هل تلقاها روسلر من المقاومة السرية الفرنسية، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة؟. إذا كان هذا قد حدث، فإنه يكون من ألاعيب الـ« روته كابيله المزورة». يؤيد ذلك أن العماد جودريان كان قد نقل في كانون الأول/ديسمبر 1941 إلى احتياطي الفوهرر، وأنه كان مغضوبا عليه نهاية سنة 1942، فلم يعد إلى العمل إلا في آذار/مارس من سنة 1943، حيث عين مفتشا عاما للقوات المدرعة. إلى هذا، كان الجيش الرابع المدرع في الوقت المذكور جزءا من مجموعة جيش (ب) في القاطع الجنوبي من الجبهة الشرقية[1]، وكان نحو نصفها مؤلفا من وحدات رومانية. ولم يكن ممكنا بأي حال أن توضع تحت إمرة يودل، لأنه كان رئيس أركان القوات المسلحة، ولم يمتلك يوما إمرة مباشرة على جيش أو مجموعة جيش.

تلمح رسالة يوم 9/ 12/ 1942 إلى أن عملية تطويق الجيش الألماني السادس قرب ستالينجراد قد انطلقت، فهي تعلن أن أهم مهمة في الفترة المقبلة هي متابعة الاحتياطي الألماني في عمق ألمانيا.

لكن هذا بالضبط هو ما حال دونه التضليل اللاسلكي، الذي مارسته الـ«روته كابيله» في الغرب. فقد تهربت عندما طرحت أسئلة محددة، مثلما حدث يوم 30/ 10/ 1942

من المدير

إلى دورا

(1) يوميات الحرب للقيادة العليا للقوات المسلحة (أركان قيادة القوات) ص 1385: «تنظيم الجيش الألماني 15/ 11/ 1942».

تأكدوا وأبلغونا بسرعة إن كانت قوات قد سحبت من الشرق إلى الغرب. إن كان الرد بنعم، أبلغونا أرقام الوحدات وأعدادها.

في اليوم ذاته:

تثيرالمعلومة حول مجموعة فايكس حديثة التشكيل بتركيبتها وعدم تحديد موقعها شكوكا جدية، خاصة وأن الوحدات المذكورة تقاتل على قطاعات أخرى من الجبهة الشرقية. لدينا مؤشرات تدل على أن مجموعة فايكس لا تزال على تركيبتها القديمة. افحصوا هذه المسألة مرة أخرى، وابعثوا الرد بأقصى سرعة ممكنة. من أين أتت هذه المعلومة؟.

لم يحفظ الرد، للأسف. وإن كان ممكنا قول ما يلي حول هذا الموضوع: كانت مجموعة فايكس هي مجموعة الجيش (ب)، التي انتمى إليها الجيشان 2 و 6 والجيش الرابع المدرع، وقائدها الأعلى العماد فرايهر فون فايكس. وهي التي حملت هجوم الألمان الصيفي إلى الدون ووصل جيشها السادس إلى الفولغا. من الجلي أن رادو نقل مادة تضليلية إلى المدير، لأنه كان يجهل طبيعتها.

يجب أن نقرأ رسالة 2/ 12/ 1942 بطريقة مشابهة. فقد نصت على:

شكرا لعرض المحاضرة. لكن توزع وتركيب المجموعة غرب بقيادة روندشتيدت، اللذين كانا قائمين يوم 25 تشرين الأول/ أكتوبر، لم يعودا راهنين. أرجو بإلحاح أن تتأكدوا وتخبرونا بسرعة عن:

1 ـ توزيع مجموعة الجيش غرب وتركيبها يوم 25 تشرين الثاني/ نوفمبر.

2 ـ توزيع جميع القوات التي وصلت إلى جنوب فرنسا.

3 ـ تركيب الفرق الموجودة وتوزيعها وأرقامها حاليا في ألمانيا والنمسا، وتلك الموجودة في البلقان، إن كنتم تستطيعون معرفة ذلك. بكلمات

أخرى: المهمة الكبيرة للفترة المقبلة هي: التأكد بدقة من الاحتياطي الألماني داخل ألمانيا.

يرجح أن تكون موسكو قد طلبت الشيء ذاته من الـ«روته كابيله»، وأن القيادة الألمانية عرفت ما كان عليها حجبه من كل بد. ويبدو أن مهمة 30/ 1/ 1943 تشير إلى معلومة مضللة أخرى بعث بها خط مارس ـ ايفل:

كلفوا مجموعة لوسي بالتأكد من دون إبطاء إن كان يوجد في القوات الألمانية المسلحة فرق مشاة تحمل الأرقام 326/ 334/ 347/ 343/ 65. وما إذا كانت قد نظمت من جديد، وأين ومنذ ومتى توجد حيث هي حاليا، وما إذا كانت فرقتا المشاة 196 و199 قد بقيتا في النرويج. لدينا معطيات حول قدوم هاتين الفرقتين إلى الجبهة الشرقية.

يذكر موللر ـ هيلبراند في كتاب الجيش 1933-1945، الجزء الثالث، حرب الجبهتين (فرانكفورت على نهر الماين 1969)، مواقع فرق المشاة على النحو الآتي[1]:

كانت فرقة المشاة 326 لا تزال في الغرب.

وفرقة المشاة 334 في شمال أفريقيا منذ كانون الثاني/ يناير 1943.

وفرقة المشاة 347 في الغرب

وفرقة المشاة 343 في الغرب (بريست)

وفرقة المشاة 65 في الغرب منذ تشكيلها سنة 1942، وانتقلت منذ آب/ أغسطس 1943 إلى الجنوب الغربي.

وكانت الفرقتان 196 و199 في النرويج. ويرجح أنه تم التصريح بأرقام

(1) المرجع ذاته.

هذه الفرق ذات القدرات القتالية المتباينة، إلى خط مارس ـ ايفل من أجل إعطاء الانطباع بوجود احتياطي قتالي كبير في الغرب.

تبرز الرسالة البرقية الآتية أن المعلومة التي تلقاها لوسي ـ روسلر من رجله في قيادة القوات المسلحة الألمانية العليا وأوصلها إلى موسكو، كانت تضليلية بدورها:

1943 /2 /5

تثير معلومة «فيرتر» حول تركيب مجموعة الجيش (أ) و (ب) تحفظات كبيرة. نسمح لكم بإبلاغ لوسي الملاحظة الآتية، وبمطالبتها بتوضيح سريع:

1 ـ يخبرنا «فيرتر» أن المجموعة (أ) بقيادة كويشلر تضم 25 او 24 فرقة. لكن معلوماتنا تقول إنها لا تضم أقل من 41 فرقة. فضلا عن أن فرق المشاة 33/ 44/ 117/ 243/ 543 والفرقة 19 المحمولة لا وجود لها في الجيش الألماني. كما لا وجود للفرق 83 و267 وفرقة المشاة المحمولة 25، ولا تنتمي الفرقتان المدرعتان 8 و12 إلى المجموعة (أ).

كانت معطيات المدير، التي ضمت فهرسا دقيقا حول الفرق الألمانية التي تم التعرف إليها، وحول استخدامها، إلى جانب خريطة وضع العدو، صحيحة إلى حد ما، لكن الحقيقة كانت أكثر تعقيدا من ذلك: فالفرقة 33 مشاة كانت قد تحولت سنة 1940 إلى فرقة مدرعة، وفرقة التحصين 41 اللاحقة لم تكن قد تشكلت بعد. أما الفرقة 117 مشاة فلم تكن موجودة، بينما تشكلت الفرقة 243 مشاة في صيف سنة 1943 في الغرب، وتشكلت فرقة الحرس 543 سنة 1944، وكانت الفرقة 19 المؤللة إعلانا كاذبا.

هذا كله كان مادة تضليلية نموذجية، بعضها صحيح تماماً وبعضها الآخر صحيح بطريقة جد مشروطة، أما الباقي فخطأ. كما لم يكن مصدره

«جهة موثوقة» أو دوائر متخصصة في قيادة القوات المسلحة العليا. والحق أن «فيرتر» يصبح محل شك، لأن هذه المعلومات تعزى إليه. أما أهليته كمخبر رئيس مزعوم فهي تواصل الاهتزاز في نص البرقية رقم 22 بتاريخ 6/ 2/ 1943، الذي يقول:

يخبرنا «فيرتر» أن المجموعة (ب) بقيادة كلوجه تضم 33 فرقة، لكننا نعلم علم اليقين أنها لا تضم أقل من 91 فرقة. كما نرى أن الفرق 12/ 61/ 161/ 162/ لم توجد مطلقا في عداد القوات المسلحة. ونعلم أن فرق المشاة 12/ 61/ 161و162 ليست من المجموعة (ب)، وتوجد في جبهات أخرى. على لوسي إخبارنا، بعد الأخذ بهذه التصحيحات، كيف أمكن أن يوجد هذا الفارق الكبير في تقدير عدد الفرق في المجموعة (أ) و (ب).

ربما كان الأمر ينصب هنا على نص فاسد جزئيا، خاصة وأن الحقيقة كانت على النحو الآتي:

كانت الفرقة 12 مشاة من ملاك مجموعة الجيش وسط.

وكانت الفرقة 61 مشاة من مجموعة الجيش شمال.

وكانت الفرقة 161 في الغرب خلال الفترة المذكورة.

وكانت الفرقة 162 في الشرق.

وكانت مجموعة الجيش وسط تضم يوم 1/ 1/ 1943 أكثر من 80 لواء ومجموعات ألوية، أي أن وحداتها الكبيرة كانت أقل من العدد الذي افترضته موسكو. وقد أكد الاستفسار بصورة قاطعة أنه لم يكن لدى «فيرتر» مخبر رئيس في قيادة القوات المسلحة العليا، وإلا لكانت معلوماته أفضل.

حدود التضليل اللاسلكي

لكل تضليل لاسلكي مضاد حدوده. إنه ليس مشروطا فقط بفرار المتعاونين كفنتزل وتريبر، اللذين اختفيا ببساطة من دون أن يقوما بتحذير موكلهما السابق، بل كذلك بتكاثر المعلومات، التي يأتي بها استمرار الحرب لفترة طويلة، لمصلحة الجهة المتفوقة خاصة، مثلما حدث مع السوفيات الروس بعد فشل «القلعة» صيف 1943. إلى هذا، ليس بوسع التضليل أو اللعب اللاسلكي الصمود لأمد طويل امام أسرى راغبين في قول ما لديهم، ينتمون إلى فرق مختلفة تنتشر على قطاعات مختلفة من الجبهة، ووثائق ملائمة يتم غنمها، لا سيما وأن اللعب اللاسلكية تفتضح عاجلا أم آجلا، متى توفرت مستندات صحيحة.

استمر لفترة طويلة القيام بألعاب لاسلكية «غير دقيقة» في الغرب. وقد بقي لنا واحد من أمثلتها الأخيرة، حدث يوم 6/ 4/ 1944، ويعد دليلا على محاولة بث الاضطراب في صورة الخصم عن عدوه، ومواجهته بمشكلات جديدة. هنا أيضاً، تعلق الأمر بخليط من معلومات صحيحة، ونصف صحيحة، ومبالغ بها وخاطئة، منها، على سبيل المثال، أنه لم يوجد قط لواء مدرع يحمل الرقم 79، وان إحدى الكتائب الجبلية في البيرنيه اعتبرت لواء جديداً. كما بذلت محاولات لتحقيق أهداف مشابهة من خلال مؤثرات تضليلية واتصالات برقية، كاستخدام بيارق القيادة للإيحاء بوجود وحدات كبيرة، لكن قيادة الغرب العليا لم تعول كثيراً على محاولات تضليلية كهذه، لأن الخصم كان يعرف الحقيقة بسرعة، ما إن يحدث «احتكاك بينه وبين عدوه». بلغ إجمالي اللعب اللاسلكية المستخدمة نحو 160 لعبة، كان النجاح الذي تحقق بواسطتها لا يني يتناقص. في سنوات الحرب الأخيرة، غدت اللعب ضربا من رياضة لاسلكية بالنسبة لمكتب أمن الرايش الرئيس، المكتب العسكري، أي لمكتب المكافحة السابقة. أما شعبة «الجيوش الأجنبية

شرق»، فاتخذت منذ وقت طويل موقفا يتسم بالريبة تجاه الألعاب، لأن قدرتها على تضليل العدو كانت تتضاءل باستمرار، مع تزايد قدراته الرقابية، بفضل الأسرى والفارين والوثائق المغتنمة. لذلك يدعو بلاغ رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، اللواء جيهلن، الذي وجه يوم 14 آذار/ مارس سنة 1945 إلى قائد سلاح الجو، شعبة قيادة الاستخبارات، حرفيا إلى القيام بمهمة استطلاع جوي، تتعلق بلعبة لاسلكية جديدة انطلقت من موقع برسبورج، تطالب بتحديد مواقع المطارات في منطقتها ونوعية القوات المرابطة حاليا فيها، هدفها «إيصال أقل ما يمكن من مواد محايدة إلى الاستخبارات السوفياتية». أما السبب، فهو توفر قدرة سوفياتية واسعة في هذا القاطع بالذات على التأكد من صحة المواد الملعوبة، بواسطة عملائهم الكثر وعصاباتهم الكثيرة، وكذلك السكان المدنيين.

إنهار التضليل اللاسلكي انهيارا تاما في سنوات الحرب الأخيرة. وكان قد تم تخطي خط الفصل بين التضليل والخداع. لئن كان المرء في السابق يستخدم التضليل في مواضيع تتعلق بوضع الاحتياطي العملياتي أو قوة مجموعات الجيش، لدفع العدو إلى اتخاذ قرارات خاطئة، فإنه شرع الآن يقوم بمحاولات يائسة بهذا القدر أو ذاك للتظاهر بوجود قوة أو استعداد دفاعي، حيث لم يكونا متوفرين منذ وقت طويل، أو كانتا تتناقصان يوميا. هذا هو السياق، الذي يجب أن نفهم فيه توجيه القيادة العليا لمجموعة جيش فايكسل، بتوقيع رئيس أركان الجيش لامردينغ، وقائد مجموعة الـ إس إس وعميد سلاح الـ إس. إس، الصادر يوم 28/ 2/ 1945، حول ضرورة أن يثير التضليل اللاسلكي المضاد الانطباع بوصول إمدادات وفيرة والانتهاء من بناء خط دفاعي عميق. لكن هذه الخدع بواسطة ألاعيب لاسلكية مضادة كانت قد فقدت منذ وقت طويل تأثيرها على قرارات المهاجم المفرط التفوق، وعلى سير القوات المسلحة الألمانية نحو كارثة لا يمكن وقفها.